ليديا هويت فارمر

أشهر ملكات التاريخ

دار الكاتب العربي

أشهر ملكات التاريخ

سميراميس

«   - ٢٠٦٩ ق.م»



يثير بعض المؤرخين الشكوك في حقيقة وجود الملكة سميراميس ، ويزعمون ان قصتها خرافية . ويختلف آخرون في زمن حكمها . ولما كان لاسمها ارتباط بأعمال تاريخية تستحق الذكر ، كارتباطه بقصة نينوى وبناء مدينة بابل العظيمة ، لم يبقَ مجال لتجاهل أعمالها .

والتاريخ الذي اخترناه من بين التواريخ الكثيرة،هو تاريخ نينوس مؤسس نينوى الذي يقال انه ابن النمرود .

ويكتنف مولد سميراميس ملكة أشور الغموض والابهام . فتقول الاساطير انها ولدت في مدينة عسقلان من أعمال سورية ، وأمها ربة من الربات وقد هجرتها في الصحراء عند مولدها فأطعمتها الحمائم ، ولما صارت ابنة عام واحد وجدها راع اسمه سميراميس عند محل صخري فتبناها ، وكانت ذات جمال فتان ، وأطلق عليها اسم سميراميس .

ولما ترعرعت اشتهرت بجمالها الفائق وذكائها المفرط ، ورآها يوماً منونيس حاكم نينوى وهو يتفقد رعية الملك نينوس في سورية ، فاستوقفه جمال هذه الفتاة وشغف بها فتزوج منها .

وسرعان ما تحكمت فيه فخضع لرغباتها واحترم أفكارها ، وكان يأخذ بنصائحها في كل موضوع .

وكان الملك نينوس قبل ذلك بسبعة عشر عاماً ، قد أخضع جميع أمم آسيا ما عدا الهنود والبكاترة ، وشيد مدينة نينوى ، أو كما قيل أتم بناءها ، على شاطىء نهر دجلة . وكان محيطها ٦٠ ميلًا ، وكانت مسورة بجدران ترتفع مائة قدم وسميكة بحيث تسير ثلاث عربات بجوار بعضها على قمتها . وحصنت تلك الجدران بألف وخمسمائة برج يبلغ ارتفاع البرج الواحد مائتي قدم .

ولما أتم الملك نينوس تشييد هذه المدينة ، عزم على الزحف على البكاترة ، لأنها كانت لا تزال تقاوم سلطانه ، في جيش لجب يبلغ عدده ١٧٠٠٠٠٠ راجل و ٢١٠٠٠٠ فارس ونحو ١٠٦٠٠ عجلة حربية . فقابله ملك البدو بجيش يربو على ٤٠٠٠٠٠ رجل ، فهزمه نينوس واستولى على كل البلاد إلا «بكتريا» مقر السلطان ، فضرب عليها نطاق الحصار .

وكان يرافق الملك نينوس في هذه الحملة أحد مستشاريه الحاكم منونيس ، فأرسل هـــذا في طلب امرأته سميراميس لتحضر الى معسكره .

ولقيت سميراميس في ذلـك فرصة لتكشف عن قوتها ، فارتدت بملابس لا تنم عن شخصيتها رجلا كانت أو امرأة . وسارت الى المعسكر فوجدت أن الهجوم موجه الى قسم المدينة القائم في السهل لا ضد قلعتها ، مما جعل البكاترة تحرس حصونها بقليل من اليقظة . فانتخبت فرقة من الجيش لها المام بالتسلق ،

وقادتها بشخصها لمهاجمة القلعة ، فاستولت عليها وأنـذرت الجيش المرابط تحتها في السهول . فلما عرف البكاترة أن قلعتهم قد سقطت قاوموا مقاومة ضعيفة ، وسقطت بسقوطها المدينة .

أعجب الملك نينوس بجرأة هذه المرأة الفتانة التي أكسبته النصر ، واعتزم الزواج منها على أن يقدم ابنته الى منونيس بدلا عنها . وكان منونيس شغوفاً بزوجه فلا طاقة له بالتسلي بغيرها عنها ، وتغلب عليـه الخوف والحب فقتل نفسه في يأس ، وتم للملك الزواج من سميراميس .

ومات نينوس بعد حكم ٥٢ عاماً ، وأوصى لزوجه بالملك من بعده لأن ابنه نيناس كان صغيراً . ويقول بعض المؤرخين انـه لبى رجاء زوجته الفتية في التخلي لها عن سلطانه في طول البلاد لمدة خمسة أيام . فصدرت الأوامر الى أطراف المملكة بالاذعـــان لاوامرها واحترامها ، ولبست خاتم الملك وجلست على العرش ، ولما استتب لهـــا السلطان المطلق استعملت سلطتها شر استعمال فأمرت بسجن زوجها ثم بقتله ، وأعلنت نفسها ملكة مكانـه وحكمت طول المدة الباقية من عمرها . وسواء قتلت زوجها أم لم تقتله ، فقد قيل انهـــا شيدت له قبراً فخماً بجوار برج « بلوس *Belus* » وزينته بتماثيل من الذهب .

واعتزمت على تخليد اسمها باقامـة الآثار الثمينة ، ومباشرة المشروعات الخطيرة ، تريد بذلك أن تفوق شهرتها شهرة نينوس . وعلى ذلك أخذت تنشيء مدينة بابل العظيمة أو تزينها فشغلت في ذلك مليوني عامل . وأقام أساس بابل بناؤو برج بابل الشهير .

ومن بين الأعمال التي نسبت اليها في بابل ، الحيطان والبروج والقلاع وجسر الفرات ومعبد بلوس وحفر البحيرة لسحب مياه الفرات . كما بنت أقنية هائلة ووصلت مدناً مختلفة بالطرق اضطرت عند بنائها أن تمهد الجبال وتملأ الوديان .

ويقال انها سارت بجيش عظيم الى ميديا ، وغرست حديقة غناء قرب جبل بجستانون الذي يزيد ارتفاعه عن عشرة آلاف قدم ، وقد ملست سفحه ونقشت صورتها عليه مع حاشية من مائة حارس ، وأنشأت حديقة أخرى قرب مدينة « شاوون *Chauon* » وعلى صخرة عالية في وسط مديا شيدت قصراً فخماً بقيت فيه زمناً طويلاً ، كما شيدت في « اكباتانا *Ecbatana* » قصراً آخر عظيماً . وقد نقشت على الآثار ما يدل على سطوتها وعظمتها المدهشة :

« لقد خلعت عليّ الطبيعة شكل امرأة الا ان أعمالي فاقت أعمال أشجع الرجال ، فحكمت أمبراطورية نينوس التي تمتد شرقاً حتى نهر هيهانام وجنوباً الى أرض العطر والمر ، وشمالاً الى بلاد السيثيان والصوجديان .

« ولم ير قبلي اشوري البحر الكبير ، فأنا أبصر بعيني أربعة بحور تعترف شواطئها بسلطاني . وأكرهت الانهار العظام على أن تصب طبق ارادتي . وسيرت ماءها لاخصاب الاراضي التي كانت من قبل قاحلة وبلا سكان . وأقمت البروج المنيعة ، ومهدت الطرق التي لم يطأها من قبل إلا وحش الغابة . وفي وسط هذه الاعمال العظيمة وجدت مجالاً للسرور واللهو . »

وكانت سميراميس متيقظة جريئة في ادارة حكومتها ، يروى انه في ذات صباح وهي تستكمل زينتها جاءها نبأ فتنة وقعت بين فريق من الاهالي ، فاندفعت في الحال نصف مدثرة وشعرها مبعثر وواجهت جمهور المشاغبين بشجاعتها ، فأطفأ حضورها وبلاغتها غضبهم بسرعة ، ومن ثم عادت وأتمت زينتها بهدوء.

وقد اعتزمت في النهاية إخضاع الهند ، فأعدت المعدات لهذه الحملة في سنتين . ولما كان الهنود مشهورين بعدد فيلتهم الكثيرة التي يستخدمونها في الحرب والتي يعدونها لا تقهر ، سعت في التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية . فأمرت بتغطية مائة ألف جمل بجلود الثيران السوداء المخيطة لتقلد بها الفيلة ، وقد اعتلى كل حيوان محارب . وبنت ٢٫٠٠٠ مركب لتشق بها الهند وأخذت أجزاءها وحزمتها على ظهور الجمال .

فجهز ملك الهند قوة كبرى لملاقاتها، وبعث اليها عند اقترابها من حدود مملكته يسألها : « لماذا أعلنت عليه الحرب ، ومن تكون هي حتى تتجرأ على مهاجمة مملكته ؟ » فأجابت ملكة أشور المتصلفة الرسول: « اذهب إلى ملكك وأبلغه اني سأخبره بنفسي من أكون ولماذا جئت إلى هنا . »

وكانت سميراميس موفقة في أول نزال ، فقد أسرت مائة ألف أسير وغرّقت ألف مركب هندي في نهر الهندوس،فتظاهر ملك الهند بالهرب وقاد جيش سميراميس وراءه . وبسبب وجود جسر عظيم على نهر الهندوس اضطرت سميراميس أن تنزل كل جيشها على الجانب الآخر وتتبع الهنود المتقهقرين بفيلتها الزائفة.

فخافت الهنود في أول الأمر تلك الفيلة الكاذبة ، ولكن عند اكتشاف تلك الحيلة عاد ملك الهند وهاجم سميراميس بفيلته الحقيقية ، ففرت جيوشها من أمامه وأصابها سهم من يد الملك الهندي . فارعت سميراميس مع فلول جيشها وعبرت نهر الهندوس ، ولم يعبر ملك الهند النهر وراءها لتحذير كهانه له من العبور ، وعلى ذلك تم بينهما الصلح على تبادل الاسرى ، وعادت سميراميس إلى أشور بثلث جيشها .

ولما بلغت حدود مملكتها علمت ان ابنها نيناس قد تآمر عليها، كما سبق أن دلت على ذلك التنبؤات التي جاء فيها انه عندما يتآمر ابنها ضدها فستختفي من بين الهالكين وتستقبل بين الخالدين . فتنازلت له عن العرش ، ويقال انها قتلت نفسها لترفع إلى الآلهة كما نصت النبوءة. ويقول آخرون انها تحولت إلى حمامة وطارت من القصر مع سرب من الحمام، ومن ثم يعتبر الأشوريون سميراميس خالدة والحمام مقدساً . وكانت قد حكمت اثنين وأربعين عاماً .

ومن الصعب الحكم على قصة سميراميس هل هي خرافة أم حقيقة تاريخية . إلا أن أعمالها الخطيرة المزعومة متداخلة في تاريخ الأشوريين والبابليين ، فلا يسع المؤرخ الثقة إلا أن يعطيها مكاناً بارزاً في التاريخ . ولو صح نصف أعمالها العجيبة ، فستأخذ بلا شك مكاناً عظيماً بين ملكات التاريخ القديم الشهيرات .

حتشبسوت

” — ١٥٠٠ ق.م “



أهم مـا كان يقدسه المصريون إبان عظمتهم هو ملوكهم ، يبالغون في الحرص على صيانة شخصياتهم حرصهم على أقدس آلهتهم وليس فرعون في عرفهم سوى إله ابن إله دماً ولحماً ومعنى . فهو ابن الشمس ما دام حياً ، ومتى مات صار إلها وأقام في السماء بين طائفة الآلهة تقدم اليه معهم العبادة والقرابين .

وقد دعاهم هذا المعتقد الى ألا يسمحوا لانسان مهما سمت صفاته وجلت خدماته ، أن يعلو عرش الملك الا اذا كان من سلالة فرعونية تجري في عروقه دماء الشمس المقدسة . وكان هذا سبباً في أن يباح لابناء الفراعنة أن يتزوجوا من بعضهم بعضاً احتفاظاً بتلك الدماء السماوية . أما اذا لم يكن للاخوة أخوات او للاخوات اخوة ، فلا بأس من الزواج بأجنبي أو أجنبية ، مع بقاء الاصل في الحق الشرعي لسليل « أمون را » .

وحدثت في أوائل عهد الاسرة الثامنة عشرة أزمة في أبناء الفراعنة ، ولعلها ناجمة عن استمرار الحرب بين المصريين وجماعة الاسيويين الذين اغاروا على بلاد النيل . لذلك كان الاشراف يتسابقون الى الزواج من الاميرات الشرعيات يرقون بواسطتهن

عرش الملك، ومن هؤلاء كان تحوتمس الاول الذي اشتهر بحروبه وفتوحاته، ولم يصر فرعوناً إلا بعد زواجه الاميرة يهمسي الذي تقدس بها وصار حقيقاً بملك مصر .

كانت البلاد عند توليه الحكم على أسوأ حال لما احتملته من استبداد أولئك الآسيويين ، ولما بذلته من جهود لطردهم وتطهير البلاد من شرهم ، وكان خوف المصريين من عودة أولئك المغيرين أو حقدهم عليهم ، قد دفعهم إلى تعقبهم في ديارهم وتخريب مواطنهم وتشتيت شملهم . لذلك قضى تحوتمس الاول مدة حكمه وهي خمسون سنة ، في حروب متوالية تكاد تكون كلها مع الآسيويين .

رزق تحوتمس الاول من زوجته الشرعية وشريكته في الملك، حتشبسوت البكر ، ثم صبيين ماتا في المهد .

ولكنه رزق من إحدى حظياته ولداً دعاه تحوتمس (وهو تحوتمس الثاني) وحدث أن توفيت زوجته في السنة الخمسين لحكمه، فاجتمع كبار الدولة وطلبوا اليه النزول عن العرش إذ انقطعت الصلة بينه وبين « امون را » بموت زوجته .

وكان تحوتمس الاول يشرك ابنته حتشبسوت معه في الحكم في أيامه الأخيرة ، وكانت الاميرة على جانب عظيم من الجمال واللباقة والفطنة بحيث امتلكت قلوب الكثيرين من الأمراء والأشراف .

لم يكن لتحوتمس الاول بد من النزول عن العرش ، ولكن لمن ؟ لابنته والبلاد لم تألف الخضوع لامرأة ، أو لابنه غير

الشرعي بعد تزويجه حتشبسوت وهو صبي ليس فيه شيء من الشجاعة ولا على شيء من العلم ؟ قد تضيع على يديه مستعمرات مصر أو يعود اليها المغيرون ، فلا يقوى على صد هجماتهم فتعود البلاد إلى احتمال الهوان .

عقد فرعون مجلساً من كبار الدولة وعرض عليهم الامر ، فقال فريق ان الاميرة جديرة بالملك لأنها ابنة الإله أمون را وسليلة الفراعنة . وقال آخرون ان الاميرة لا تقوى على حمل السلاح وقيادة الجيوش وفرعون هو القائد الأعلى لجيوش مصر . ولكن ما عرفه الجميع من حذق الاميرة وسعة معارفها ، وما كانت تأخذ به نفسها من المران على الاعمال الحربية ، انتهى بالجميع إلى الاتفاق على تتويجها ملكة ، ولم يكن القوم لينتهوا إلى ذلك لولا قولها هي : « ان في رجال الدولة من يصح الاعتماد عليه في ادارة الحروب إذا عجزت هي عن ادارتها . »

صحت عزيمة فرعون على ذلك وعقد مجلسه العام وأعلن إرادته قائلًا :

«اني أتنازل عن عرشي لابنتي حتشبسوت فهي من الآن ملكتكم تؤدون لها العبادة والطاعة . وهي صاحبة الكلمة العليا لا مرد لقولها . من أحبها وأطاعها فله الحياة ومن أبى فليس له سوى الموت .

« على اني سأزوجها من ابني الأمير تحوتمس الثاني ليكون لها عوناً وليقيم للعرش نسلًا . »

ثم جاء بالامير ورفعه إلى المقام الملكي .

وما ذاع هذا النبأ بين الشعب والجند حتى امتلأت الصدور

انشراحـــاً ، وانطلقت الألسنة بالحمد وتجاوبت أصوات البشر والتهليل . غير أن ذلك لم يدم طويلاً إذ بدأت الكلمة تتفرق ، وانقسم الرأي العام إلى قسمين على رأس كل منها جماعـــة من الاشراف . دعي القسم الاول « حزب الشرعيين » القائلين ان الشرع لا يبيح الجلوس على العرش إلا لسليل أمون را ، وليس في مصر خليق بهذا سوى الاميرة حتشبسوت فهي الملكة الشرعية . ودعي القسم الآخر « حزب المعارضين » القائلين بألا تجلس على العرش امرأة .

اشتد الخلاف بـــين الحزبين ، ولكن ارادة فرعون جرت مجراها ، وأقيمت للملكة حفلة التتويج الدينية المدنية ، وكأن الملكة أرادت التقرب إلى المعارضين أو اضعاف حجتهم فتقدمت في ثياب رجل يستر نصفها الادنى ذلك الجلباب الذي يمتد من القد إلى القدمين ، ونصفها الاعلى عارياً ، وأمرت ان ينطق باسمها « حاتشوبسيو الشريف الاول » بدلاً من « حـاتشوبستو المحظية الاولى » على أن هذا لم يغير من طبيعتها ولم يؤثر في الشعب أثره ، إذ بقي استياء المستائين على ما هو عليه .

اعتزل تحوتمس الاول الحكم ، وبقي في عزلة هادئة يقضي ما بقي من حياته . واستمرت حتشبسوت في ادارة شؤون الدولة ، يعاونها من الاشراف « سنموت» كبير المهندسين وهو الذي تولى بناء معبد الملكة المعروف « بأعجب العجائب » و« يهمس»حامل ختم الملك . و « زير » وهو الذي اشترك مع سنموت في البعثة إلى البونت ، وتحوتي وزير المالية ، وأبو سنب كبير كهنة أمون

ورئيس الانبياء في الارضين «البحري والقبلي» والنبي عندهم مرتبة من مراتب الكهنة . وكان هذا يجمع بين يديه الشؤون الدينية والشؤون المدنية .

استمرت الحال على هـذا المنوال ثمانية عشر شهراً شرعت الملكة ابانها في بناء معبدها . إلا أن أحوال الدولة الخارجية أخذت في الاضطراب وشقت المستعمرات عصا الطاعة ، وبدأ الخطر يهدد البلاد خشية تألب الاعداء واغارتهم متحدين على مصر .

لم يطق تحوتمس الشيخ صبراً على هـذه الحال ، وأكثر من اللجاج كبار الدولة من المعارضين حتى أوشكوا أن يضرموا نار حرب أهلية . لم يعبأ تحوتمس بالعرش ولا بالجالسة عليه ، وأسرع الى الجيش وقاده الى آسيا حيث شتت شمل الأعداء وأوقع بهم شرّ إيقاع ، وتقدّم حتى بلاد النهرين واجتاز الفرات . ولما وطد سيادة مصر هناك عاد بالاسلاب والغنائم ، وأخذ يقيم لنفسه الهياكل الى جانب معبد ابنته وقد هدم منه أكثره ، وجعل ابنه شريكاً عاملاً مع الملكة .

رُفع تحوتمس الاول كما يقولون الى السماء ، وبموته عاد تحوتمس الثاني الى خموله واستكانته ، تاركاً لزوجته مهامّ الملك مكتفياً منها بحقوقه الزوجية ، غير منقطع عن خليلته « ايست » ، ورزق من زوجته ابنتين هما نفرورا وحتشبسوت ، واولد خليلته صبياً دعاه تحوتمس الثالث . ومن المؤرخين من يقول إن هـذا ابن تحوتمس الاول من محظية غير والدة تحوتمس الثاني . على أن الاقرب أن يكون الامر كما ذكرنا لما كان بينه وبين الملكة وزوجها من

التفاوت في السن .

أقام تحوتمس الثاني مع زوجته شريكاً في الملك سنتين ونصف سنة . ويقال إنه قام في آخرها البدو من سكان الرمال بحركة عدائية ذهب هو لاخمادها ، ويؤثر عنه لمناسبة هذه الحملة الصغيرة ، عبارته الوحيدة الباقية وهي :

« قسماً بمحبة رالي . وبما فضلني به والدي ، رب الأرباب آمون ، صاحب عروش الارضين ، (بحري وقبلي) ألا أبقي منهم رجلاً » .

على انه عاد من هذه الحملة وكأن حشرة سامة لدغته فأحدثت تسمماً في جسمه انتهى به أجله ، وظهرت أعراضه في مومياه .

أصبحت حتشبسوت بعد موت زوجها حرّة اليدين ، فجعلت همها إصلاح اوضاع البلاد الداخلية ، تقيم ما هدمه المغيرون من المعابد وتنظم مجاري المياه لإصلاح الري والزراعة ، وتنشط التجارة وتحيي الصناعة ، فحسنت الحال وكثر الرخاء ، وازدادت موارد الكسب ، واطمأنت النفوس .

ثم تفرغت الى معبدها « أعجب العجائب » الذي لا يزال قائماً في طيبة حتى اليوم ، بعد أن كشف عنه الأثريون وهو المعروف لدى التراجمة والسائحين بالدير البحري ، إذ كان على انقاضه دير للاقباط أزاله المنقبون . كما ينتظر أن يزول مقام الشيخ الحجاج القائم على معبد الاقصر ، إذ لا بد أنه يخفي تحته ما بقي من ذلك المعبد .

وهذا المعبد العجيب حقاً يستند الى الجبل الليبي المظنون أن

مساحته تمتد الى الجورنة ومدينة حبو . والبناء القائم عليه يشغل ٢٥٠ متراً وهو مؤلف من ثلاثة أدوار لكل دور سطح فسيح ، قائمة على أعمدة ضخمة تكثر عليها النقوش الهيروغليفية التي تروي لنا قصة مولد الملكة حتشبسوت واتصالها بالاله أمون ذاته الذي أحب والدتها فكانت بذلك ابنة الأله مباشرة ، كما كانت ابنة تحوتمس الاول. وقد أرادت بذلك إدخال اليقين الى النفوس الثائرة بأن من يعارضها في الملك يعارض الأله ذاته ، وانها في عرف الآلهة والناس الملكة الشرعية. وكأنها استهدفت من الاشادة بحفلة تتويجها هذا المعنى . وقد اهدت الملكة معبدها الى أمون رسمياً ، وكرست فيه هيكلين أحدهما للأله هاتهور والثاني للآلهة انوبيس . على أن المعبد في جملته صفحة تاريخ لحياتها .

لم تقف إرادة الملكة عند هذا الحد بل زعمت أن الأله تراءى لها ، وطلب منها أن تحضر لمعبدها الاشجار العطرية وأشجار اللبان المرّ من بلاد البونت بلاد الآلهة ، التي لم يطرقها غريب منذ ألفي سنة .

وهذه البلاد واقعة على شواطىء البحر الأحمر ، ويظن البعض أنها سواكن ومصوع ، ويظن آخرون أنها صومالي لاند . فأعدّت الملكة بعثة تحت قيادة سنموت ويهمس وجهزت لذلك خمس سفن . ويرى الأثريون أنها أبحرت من الاقصر صعداً ، ثم سارت في قناة كانت هناك تصل النيل بالبحر الاحمر ومنها الى البحر البونت .

وصلت البعثة تحمل الهدايا فقابلها ملك البونت بريهو وزوجته

آتي أحسن استقبال ، دهشين لوصولهم الى بلادهم ، يسألونهم هل هبطوا من السماء. فقدم سنموت الهدايا الى ملك البونت وزوجته، وشحن سفنه من الاشجار والعطور والذهب والفضة والكثير من الحيوانات وجماعة من الاهالي ، وجاء الملك وزوجته لمشاهدة مصر ومليكتها . ولا تزال صورهم منقوشة على أعمدة وجدران المعبد « أعجب العجائب » حتى اليوم .

غرست الاشجار في رحبات المعبد وفوق سطوحه لتكون كما هي عليه في بلادهـــا فوق الجبال المرتفعة ، حتى اذا تمت قالت الملكة في بهجة وسرور :

« لقد أنشأته للآله « بونتا » في طيبة يمرح فيه وينشق عبيره على ما يشاء » .

كان عصر حتشبسوت عصر سلام وطمأنينة داخل البلاد ، غير أن الشؤون الخارجية لم تكن على ما يرام، اذ أحست المستعمرات بارتخاء في أيدي الدولة ، فأخذت تتآمر بها، وتحاول التخلص من حكمها . وكانت الملكة تحتال لاحباط سعيها بوسائل سلمية ، إلا أنها لم تكن سوى مسكنات وقتية ثم يعودون بعدها الى التآمر بالمصريين والانقضاض عليهم .

ولما كانت المعابد لا تفيد شيئاً في عصر السلام ، إذ كان لها أكثر ما تغنم الجيوش من الحروب ، لم ترق لهم هذه الحال فكانوا لا ينفكون عن إهاجة حزب المعارضين . وكان تحوتمس الثالث قد بلغ أشدّه وبصفته ابن فرعون وإن كان من محظية ، فهو أمير شريف يحق له الاستيلاء على العرش إن لم يكن بنفسه فبوساطة

زواجه من الملكة وهي من دم مقدس .

اجتمع الكهنة حول تحوتمس يشددون من عزيمته على المطالبة بالملك ، معضدين « حزب المعارضين » القائلين بأنه لا يجوز أن تجلس امرأة على عرش الفراعنة ، وإغراء للعامة أشاعوا له معجزة ادعوا فيها أن أمون ذاته اختاره فرعوناً لمصر . واليك ما رواه تحوتمس الثالث نفسه عن هذه الحادثة :

« كنت شاباً أقيم في المعبد قبل أن أرقى الى رتبة « نبي » .. وكنت من فريق الكهنة المعروفين باسم « انتيف » « كهنة العبادة الملكية » على شاكلة هوريس خميس . وكنت واقفاً الى شمال عمود في رواق الاعمدة. وكان ذلك يوم عيد السماء والارض الذي يقبل فيه الأله القرابين من الملك . وكان الشعب يبخر على مذبحه . والملك يضع البخور على النار ويضحي بثيران وعجول.. طاف الأله حول أعمدة الرواق ، فلم يفهم الناس مقصده ، اذ كان يبحث عن جلالتي .

« فلما عرفني وقف .. خررت له ساجداً ، فقدمني وأجلسني على سرير الملك .. دهش الناس لما رأوه . فأعلن لهم ما أضمر الإله من الاسرار التي لم يكونوا يعرفونها .. فتح أمامي أبواب السماء ، فتح أمامي أبواب أفق را فطرت إلى السماء كالصقر المقدس ، وشهدت صورة في السماء سجدت لجلالته وشهدت أشكاله المجيدة . (وهذه عبارة رمزية يراد بها العرش الذي يقدم اليه المرشح للملك..) أقامني ملكاً . وتوّج رأسي بأكاليله ووضع على جبيني الحية وأكرمت اكرام إله وسجلت لي ألقاب الملوك . »

تذرع تحوتمس الثالث بهذه المعجزة التي أشاعها له الكهنة ، وبدأ بمواجهة الملكة حتشبسوت يدعوها إلى النزول عن العرش ، مؤيداً حقه في الملك بتتويج الإله أمون له ، وبأنه ابن تحوتمس والوريث للملك . واجترأ في دعواه حتى ادعى على الملكة اغتصاب أو اختلاس العرش ، ضدّ شرائع البلاد التي أصبحت في حاجة إلى ملك يقود جيوشها للقضاء على مؤامرات المستعمرات وتوسيع سلطان مصر .

لم تكن حتشبسوت لتؤخذ بمثل هذه البداهة ، ولم ترَ من المصلحة مخاصمته فأخذته بالحيلة ، مظهرةً له كل عطف ، زاعمة أنه من أنجب شباب مصر ، وان له مستقبلاً عظيماً ترجو له تحقيقاً ، ثم أظهرت له حباً خالصاً وما زالت به حتى كسرت شرته وألانت حدته . فإذا به بين يديها تقبله ويقبلها كعاشقين ، ولكن ما إن تركته باسمة واثقة بخضوعه حتى انتفض وعاد إلى حدته . وهرب وهو يقول :

« لا أقابلك أبداً إنك ساحرة فاتنة !.. »

عاد تحوتمس الثالث إلى زملائه الكهنة يائساً من التغلب على هذه المرأة العجيبة . ولكن للأيام حوادثها وأحكامها . لم يمض زمن حتى ظهرت الفتنة في كوش ، وكانت الملكة قد تقدمت في السن . وكثر لغط الشعب الذي ملّ الراحة ، وثار الجيش الذي كان يصبو الى القتال ، فوقعت الملكة في حيرة : إذا هي أعدت جيشاً لقتال الكوشيين انضم الجيش الى الامير تحوتمس الثالث ، وإذا ظفر بالاعداء عاد بجيش منتصر فلا يبقي عليها ، وإذا هي

صبرت خرجت المستعمرة عن سلطان مصر .

شاورت الملكة رجالها في الامر فأجمعوا على تفضيل ضياع مستعمرة على ضياع البلاد كلها ، وان السبيل الوحيد هو اعتقال تحوتمس كرهاً . ولكن الملكة لم ترَ ذلك لما تتوقعه من تزويجه من ابنتها وفاقاً لشرائع البلاد، ولم تخف هذه الاخبار عن الامير، فخفّ إلى الملكة ولكن في حدة أشدّ من الاولى، يبرق ويرعد ويهدد ويتوعد ، والملكة تقابله بالهدوء والسكينة والدعة ، حتى انتهت إلى اعلانه برغبتها في تزويجه من الاميرة نفرورا ، وبذلك تجعله شريكاً في الملك ، على أن يعدل عن محاربة الكوشيين .

كان تحوتمس الثالث يحب نفرورا ويرى في زواجه منها طريقاً مشروعاً للعرش ، فلم يتردد في القبول ، وما هي إلا أيام حتى كان زوج نفرورا وشريك حتشبسوت في الملك . ولكن أين السبيل للتوفيق بين إرادتين قويتين متعارضتين . هي مصرّة على الاحتفاظ بالملك ، وهو يأبى أن يكون له شريك فيه . فلم تطل الحال ، وكأن المستعمرات شعرت أو توهمت ان لم تبق لمصر قوة على محاربتها، فتألبت الدويلات الاسيوية وأجمعت أمرها على خلع سلطان المصريين . وأرادت الملكة استعمال وسائلها السلمية فاجترأ الاعداء على قتل الرسل، واعلان عصيانهم وانكارهم كل حق لمصر .

خارت عزيمة الملكة ولم يعد بدّ من الحرب ، وكان تحوتمس قد ملك قلوب الجند وكثر أنصاره ، وأصبحت الملكة وليس لها من حول أو سند سوى حقها الشرعي، ورجال شوراها لا يجدون

للامر حلا إلا بواحدة من اثنتين : قتل تحوتمس والملكة لا تسلم بذلك إذ أصبح زوج ابنتها أو ابنتيها كما يقول البعض ، أو النزول عن المستعمرات ولا بد أن يحدث هذا التنازل ثورة داخلية .

آثرت الملكة مصلحة الوطن وأمرت باعداد الجيوش، ودعت تحوتمس الثالث وأبلغته أنها تأمره بتولي القيادة والسير الى بلاد النهرين ثم السير الى الكوش . فاذا به يعارضها في قحة قائلًا :

يريد صاحب الجلالة ملك مصر تحوتمس الثالث أن يسير بجيوشه أولا الى كوش ليخضعها بما لديه من جيش معدّ ، ثم يذهب الى آسيا بما يكون رجال الحربية قد أعدوا من جيوش . هذه ارادتي وقد انقضى عصرك الذي ملأته كلاماً وجاء عصري الذي سأملأه أعمالاً ! .. »

وأرادت حتشبسوت مقاومته ، ولكن صيحات الجيش والشعب حول القصر التي تهتف باسم أميرهم وقائدهم فتّ في عضدها ، فلم تزد على قولها :

« إني أنزل لك الآن عن العرش ! .. »

لا جدال في أن أجل أعمال هذه الملكة إيثارها النزول عن العرش ، وهي صاحبة الحق وبيدها القضاء على هذا الثائر . وكان لها من معبدها « أعجب العجائب » ما لا يقل عما صار لسيتي الاول من عماراته في أبيدوس والجورنه ، ولا يقل عما صار لرمسيس الثاني من الرمسيوم ، ولا يقل عما صار لرمسيس الثالث من مشاءاته في مدينة حبو .

والغريب الذي يدهش له حقاً ، أن اسم هذه الملكة العظيمة

لم يره في لوحات الملوك في ابيدوس وسقارة، ولا ذكرها مانيتون في قائمة ملوك وادي النيل. ولعل ذلك راجع الى كثرة ما أحدثه تحوتمس الثالث من التلف في آثارها في المعبد والمسلات والمبا كل التي شادتها . أو لبغض الاهالي والكهنة من تخليد ذكرى ملكة أقامت على عرش الفراعنة اثنتين وعشرين سنة ، أسعدت فيها البلاد ومهدت بحكمها السلمي لتحوتمس الثالث عصره المجيد .

على أن هذه الملكة حقيقة ، هي الاولى أو القدوة، أو على الاقل في طليعة الملكات التي ظهرت على عروش الدول ، مثل كاترين واليزابت وماري تريز وغيرهن . على أن الاثريين لم يعثروا حتى الآن على قبر هذه الملكة الحقيقي ، وكان المشتبه فيه ما وجد أخيراً من مومياء امرأتين لا ندري أكانتا ملكتين أم من السوقة ، ولعل الايام تهيء اكتشاف هذا الاثر الجليل لأول ملكة عظيمة في تاريخ الانسانية ، سوى تاريخ نيتوكريس التي ظهرت في الاسرة السادسة ولا ندري أخرافة هي أم تاريخ !

كليوبترا

" ٦٩ - ٣٠ ق.م "



قال احـد الكتاب : « ان كليوبترا مصرية مولداً ويونانية دماً ، فكما ان في الاسكندرية ودلتا النيل قامت أهم حوادث تاريخها ، فان دم مقدونيا يجري في عروقها ، واذا كانت قـــد اشتهرت بالعبقرية والشجاعة والفطنة والاندفاع فذلك انما يرجع من ناحية الى الأصل الذي انحدرت منه ، ومن ناحية اخرى الى حوادث تاريخها ، والى طبيعة مجازفاتها وآلامها وآثامها التي سببتها الظروف المحيطة بها والمؤثرات التي جاءت متفقة مع الجو العاطفي الذي كانت تعيش فيه » .

ولكي نفهم بوضوح حياة كليوبترا تلك الملكة المشهورة ، يجب ان نرجع الى صفحات التاريخ المصري ، ولا يصح الوقوف عنده ، بل يجب ان نزور كذلك أرض اليونان ، كما ان لاحتفالات روما في زمن مجدها مكاناً في قصة ملكة مصر هذه .

فدماثة اليونان وثقافتها مـــع الاستهتار المصري الشرقي ، وتمازجهما في تلك الملكة ، مزج التاريخ بالقصة والشعر عند الذين حاولوا الكتابة عنها .

انحدرت كليوبترا من اسرة البطالسة الملوكية التي كان يمتاز

مؤسسوها بأصالة الرأي وبعد النظر ، والعمل على ترقية الشعب في الفنون والعلوم والآداب ، الى ان جاء جد كليوبترا الأكبر فكان في التاريخ وحشاً فظيعاً ، وعلَماً على كل رذيلة وجريمة . وكانت والدة ابيها شقية ظالمة ، لا تحترم رباط الزوجية ولا مبادئها ، فتبعتها بناتها في الاستهتار حتى انتهى الأمر بينهن بتقتيل بعضهن بعضاً .

وقد سار أبوها سيرة والده ، فخلعته الرعية لبغضها له ، ولما اشتهر عنه من ارتكاب الآثام والرذائل ، ففر الى روما طلباً للمساعدة على استرجاع عرشه ، فملّك المصريون عليهم كبرى بناته ، فعاد اليهم وهزمهم ، وقضى على ابنته بالموت .

وقضى الملك نحبه وكليوبترا في السادسة عشرة من عمرها ، وأوصى بالملك من بعده لها ولأخيها الصغير « بتولمي » .

ولما كان كل من كليوبترا وأخيها حدثا صغيراً ، فقد حكما المملكة بالاسم ، بينا أدار الحكومة وزيران هما « بوتنيوس » و « اشلس » ، فأراد هذان الداهيتان الاستقلال بالامر في المملكة ، وكان أحدهما قائد الجيش ، فدافعا عن قضية بتولمي الصغير شقيق كليوبترا وخلعا كليوبترا ، وأجلساه على العرش ليبقى مجرد صورة يلعبان بها كما يشاءان .

إما كليوبترا فمضت الى سورية لتثير الجيوش ضدهما بغية ان تسترد حقها الموروث بالقوة . وقد سيّرت بالفعل جيشاً قابله الوزيران بجيش عظيم كان على رأسه أخوها كملك اسمي ، وعسكر الجيشان في بليوسيم ، ولكن لم تقع معارك بين الجيشين لظروف

طرأت لم تكن في الحسبان .

ان « يوليوس قيصر » كان قد بلغ الاسكندرية مقتفياً أثر خصمه « بومبي » بفرقة صغيرة من جيشه فنزل في القصر الملكي ، ولما علم بما يدور في البلاد ادعى انه صاحب الحق في حسم النزاع القائم بين كليوبترا وأخيها بتولمي .

وعلمت كليوبترا بقدمه فلجأت الى الحيلة، فأرسلت إليه رسالة تطلب فيها لقاءه،وأعدت في الوقت نفسه قارباً ، وغادرت الجيش سراً ، واصطحبت خادماً وبلغت معه الاسكندرية ، وانتظرت حتى خيم الليل بسكونه ثم تقدمت بالخادم حتى حائط القلعة ، وأمرته أن يلفها في بساط ويغطيها بحيث تظهر كأنها متاع ، ثم يحملها على كتفيه الى المدينة ويتقدم بها الى القصر .

وصدع الخادم بما أُمر به ، وأفهم الحراس انه يحمل هدية الى « قيصر » ، فأُذن له بحملها اليه . ولما فُتحت الحزمة في حضرة القائد الروماني أخذ بمنظر كليوبترا وشغفه جمالها .

وكانت كليوبترا في ذلك الوقت في الواحدة والعشرين من عمرها ، على شيء كبير من الجمال وطلاقة اللسان ، فلما بسطت قضيتها أمام هذا الفاتح الذي دوّخ العالم نزلت من نفسه منزلة جعلته أسيراً لها .

فدافع عنها في الحال بحمية ، وأرسل في طلب الامير الصغير وألزمه بمشاركة أخته في الحكم. ولكن ذلك الأمير أهاجه وقوع أخته في قبضة قيصر ، فخرج من القصر هائجاً ونشر بين الناس أن أخته قد خانته . فثارت ثائرة الاهالي حتى اضطر قيصر أن يسجن

كليوبترا خوفاً عليها من هجوم الغوغاء على القصر .

ورغم ان قيصر لم يكن لديه الجنود الكافية ، فقد أرسل فصيلة للقبض على « بتولمي » وإحضاره أسيراً ، فأدهشت الاهالي جرأته هذه التي لم يسمعوا بها من قبل ، ولكن قيصر اعتلى البرج ومن نافذة فيه أطل عليهم وخطبهم قائلاً بما انه ممثل أمة الرومان فهو يسعى في فض النزاع القائم بالعدل، وأوصاهم بالهدوء، فتفرق الناس وبقي الاخ والاخت تحت وصاية قيصر .

ولم يرق ذلك في نظر الوزيرين فأثار احدهما عليه حرباً اضطر قيصر امامها أن يأخذ حيطته لقلة عدد جنوده ، فأمر باحراق مداخل المدينة من ناحية البحر ، وقد نجح تدبيره وهزم المصريين ، ولكن فديحة الهزيمة كانت صغيرة بالنسبة لحريق مكتبة الاسكندرية التي أحرقت فيما أحرقه قيصر ، والتي كانت مناراً هادياً للغرب والشرق بما احتوته من نفائس الكتب . وفقد « بتولمى » في هذه الحرب حياته .

وعاد « قيصر » إلى روما بعد أن كان قد افتتن بكليوبترا فتزوج منها مع أنه كان متزوجاً من امرأة رومانية . ولم يطل بها المقام في مصر اذ تبعته الى روما ، ومعها طفلها سيزاريو واخوها الصغير الذي خلف القتيل في الاشتراك معها في الحكم .

ومات قيصر بعد ذلك باربعة اعوام ، فحاولت أن تسعى لدى مجلس الاعيان في روما ليعترف بابنها شريكا معها في الحكم بدل أخيها ولكنها فشلت . وقد تلقت نبأ وفاته وهي في داره في روما،وخشيت على حياتها من غضب الشعب الروماني عليها لما كان

لها من التأثير على قيصر ، فسافرت سراً مـــع طفلها الى مصر .
وكان أخوها في ذلك الوقت قد بلغ الخامسة عشرة ، فأصبح له حق تصريف أمور الدولة فسعت في تسميمه كي تنفرد بالحكم .

وبذلك تكون قد حكمت أربعة أعوام مع اخيها الاكبر ، واربعة مع أخيها الاصغر ، ثم انفردت منذ ذلك الوقت بالحكم .

وقـد كشف قتلها لاخيهـا عن غرائز وحشية كانت مطوية فيها ورثتها عن اجدادها الذين ارتكبوا أشنع الجرائم ، وأكبر الآثام . فقد شهدت اباها يقتل اختها الكبرى ، كما قضت شبابها بين مناظر اللهو والخلاعة .

وكانت موقعة «فيليبي» قد سطرت لانطونيو مجداً وسلطاناً ، فجعلته أبرز رجـل بعـد قيصر كما كانت كليوبترا أبرز امرأة في العالم .

ولم تعلن كليوبترا بعد مقتل قيصر مناصرتهـا لخصومـه ولا لأنصاره ، ولكن حدث أن انطونيو اتهمها بممالأة كاسيوس ودعاها للمثول امامه ، وكان يومئذ في طرسوس ، وأرسل لها رسالة مع أحد ضباطه الذي بهره جمالها لأول نظرة ، فطمأن خاطرها وأكد لها أن انطونيو سيفتن بها ، وأشار عليها أن تسافر الى طرسوس في حاشية فخمة وفي زينة وفخفخة .

فأخذت بنصيحته وتم لها اخضاع انطونيو لارادتها .

وسر قوة كليوبترا كان في فراستها الغريزية التي تتعرف بهـا طبيعة الرجال ، وفي بصيرتها التي تكشف بها عن مواطن الضعف فيهـــم . فقد كسبت يوليوس قيصر بترامیها تحت سلطانه ،

وكسبت مارك انطونيو بفرض سلطانها عليه . داهنت قيصر من ناحية حبه للسلطان فأخضعت نفسها له . وخلبت لب انطونيو بتظاهرها بالقوة أمامه . وبينا هي قد حملت نفسها بنفسها الى قيصر ، اذا هي تأمر انطونيو أن يأتي اليها ..

ولما بلغت كليوبترا بقاربها الى طرسوس خفّ الناس الى مشاهدتها وتلهوّا بها عن كل عمل ، فأصدرت اوامرها بنصب الخيام على الشاطىء .

ولما بلغ انطونيو قدومها أرسل الى الملكة المصرية يدعوها لتناول الغداء معه ، فردت عليه في أدب تقول إنها تكون ممنونة لو تفضل هو وقواده ونزلوا ضيوفاً عليها . فلبى دعوتها ، ولما دخل عليها مع قواده عجبوا مما رأوه في الخيام من مظاهر العظمة والابهة . فكان يقدّم الاكل لهم في صحون من الذهب المرصع بالاحجار الثمينة ، كما كانت المقاعد الاثنا عشر التي صفت للضيوف محلاّة بالذهب والارجوان .

ولما أثنى انطونيو على ما شاهد ، ردت عليه الملكة في غير اكتراث بأن هذه الاشياء غاية في البساطة ، ولكن بما انه قد اعجب بها فانها تقدمها اليه هدية صغيرة .

ودعاها اليه في اليوم التالي وحاول أن يتأنق في مأدبته ، ويقلد مظاهر عظمتها ، ولكن أسقط في يده ، فأولمت لهم كليوبترا وليمة أخرى فكان ثم أثاث أفخر مما كان ، وتحلت هي بالجواهر النادرة مما أدهش أبصار ضيوفها . وعند نهاية الوليمة أهدت كل ضيف الكرسي الثمين الذي كان يجلس عليه ، وفرقت بين ضيوفها

أدوات الأكل من صحون وملاعق من الذهب والفضة المرصعة بالجواهر الثمينة .

وكانت ملابسها في كل مرة فتنة للناظرين ، كما أنها أبدعت في انارة خيامها بمختلف الانوار . وكانت تكلم كل سفير بلغته . ولا عجب فانه يقال انها الوحيدة من بين كل ملوك مصر التي كانت تفهم لغة كل رعاياها وتتقن ما لا يقل عن سبع لغات .

وكانت يومئذ تناهز الخامسة والعشرين من عمرها فكان جمالها الشرقي في أوجه ، كما كانت تفتر عن ذكاء وحصافة .

ولما عتب عليها أنطونيو تبذيرها ضحكت منه وقالت إن غداء الغد سيتكلف ما يساوي (من عملتنا الحاضرة) ٣٠٠ الف دولار. فلم يكد يصدق هذا ، وعقد معها رهاناً . ولما جاء مع قواده في اليوم الثاني لم يرَ مظهراً جديداً من مظاهر الفخامة ، فقال ضاحكاً إنه كسب الرهان. فأجابت إنها ستأكل وتشرب الثلثمائة الف دولار أمامه .

وكانت تعلق في أذنيها لؤلؤتين من أكبر ما عرف في العالم ، كانت قد ورثتهما مع المملكة والتاج ، وكانا يقدران بما لا يقل عن ٢٢٢،٠٠٠ دولار .

وجاءها الخادم بكوبة من الخل فأخذت من أذنها إحدى اللؤلؤتين وألقت بها في الخل ، ولما ذابت شربت السائل . وأرادت أن تعالج اللؤلؤة الاخرى فاختطفها من يدها أحد الضيوف وقال : « لقد كسبت الرهان » . وأرسل بها إلى روما حيث قطعت إلى قطعتين عمل منها قرطان لتمثال فينوس في

الباثيون .

وكانت كليوبترا مغنية ، وكانت جميلة ، وعلى شيء كثير من الثقافة . فاستعملت كل فنون جمالها وعقلها لاخضاع ارادة القائد الروماني العظيم والاستئثار بقلبه . ووفقت إلى ما أرادت . ففتن بها ونسي زوجه التي تركها في رومـــا ، ونسي كذلك حقوق بلاده ، ونسي حتى انتصاراته وأصبح أسيرها . فأقنعته بان يتبعها إلى الاسكندرية فتبعها ، وهناك تركا لنفسيهما العنان .

وكان لكل منهما قصر في الاسكندرية . فكانا يولمان الولائم لبعضهما ويسرفان فيها أي اسراف .

وبذلت كليوبترا جهدها لتلفته عـــن التفكير في العودة إلى روما ، وكان أول طلب لها منه قتل اختها التي كان أسرها قيصر فأمر انطونيو بقتلها في معبد ديانا ، فحق عليها تسمية شكسبير لها « بثعبان النيل القديم » !..

وحدث أنه بينا كان انطونيو غارقاً في ملذاته أن ثارت روما ، وماتت امرأتـــه الرومانية ، ونفي أخوه ، وصارحه اكتافيوس قيصر العداء ، فاضطر أن يعود الى روما وتزوج من أخت قيصر الصغير وبذلك تم الصلح بينهما . وأخذ يملق كليوبترا فكان يهديها المقاطعات الرومانية، حتى انه وعدها يوماً تحت تأثير الخمر أن يهديها الامبراطورية الرومانية . وأهداها فيما أهداه لها مكتبة برجاموس التي كانت من نصيبه في اسلاب الحرب . فاستعادت بها الاسكندرية مكانتها في العالم . وأصبحت كليوبترا هي وابنها من قيصر، ملكة على مصر وقبرص وليبيا وكل سوريا.

كما ملك ولد انطونيو الاكبر ارمينيا ومديا ، وكان نصيب ولده الاصغر سوريا وفونيقيا وسيسليا .

وعاد الخلاف فتجدد بين انطونيو واكتافيوس قيصر ، لسلوك انطونيو الشائن مع أخته زوجه الجديدة . فأعدا عدة الحرب ورحلت كليوبترا مع انطونيو الى أثينا ، وما كادا يشتبكان حتى خشيت كليوبترا الحرب ، وانسحبت الى مصر بجيشها . فترك انطونيو المعركة ولحق بها في عرض البحر ، وبلغا الاسكندرية معا وعادا الى لهوهما رغم اقتفاء اكتافيوس اثرهما .

فلجأت الى الحيلة وعزمت على خيانة انطونيو ، فأقنعته بأن يرسل الرسل الى خصمه في طلب الصلح ، وأرسل معهم ضباطاً لها وزودتهم بحق التكلم عنها مع اكتافيوس على حدة .

وأخذت هي في تجربة مختلف السموم توقعاً لما قد يكون من النتائج .

وأخيراً جاءت الاخبار أن اكتافيوس قد بلغ بليوسيم ، وأن المدينة سقطت في يديه ، وأن سقوطها يرجع لخيانة كليوبترا التي بعثت بكلمة في السر الى حاكمها بتسليمها . ولكي تبرىء نفسها من الاشاعات التي راجت ضدها بهذا الشأن ، سلمت امرأة الحاكم واولاده لأنطونيو لينتقم منهم لنفسه بتقتيلهم .

وأخذت تنشىء لها قبراً يلاصق معبد ايزيس ، وأمرت بأن يوضع فيه كل ما جمعته من مال وحلي وتحف وعطور ، وأن يوضع في طبقته السفلى قنب وكتان ومشاعل وغير ذلك مما هو قابل للالتهاب ، حتى اذا دنت ساعة الخطر ولم ترَ لها مخرجاً ، أشعلت

النار في نفسها وفي كنوزها لتحرم منها خصومها .

ولما علم بذلك اكتافيوس خاف أن تفر من يديه بكنوزها، فبعث اليها بالرسائل يعدها باحسن معاملة عند بلوغه الاسكندرية.

ولم يكن عند انطونيو علم بشيء من كل ذلك . وكان اكتافيوس قد تقدم نحو المدينة فاشتبك معه انطونيو في أول يوم في معركة صلا فيها اكتافيوس ناراً ، وعاد منتصراً الى القصر . فأولمت له كليوبترا وليمة لانتصاره ، وبعد انتهاء الوليمة استقر رأيه على مهاجمة خصمه بالبر والبحر ، ولم يكد يقود جيوشه البرية الى مرتفع ليشهد تقدم سفنه التي كان يجب أن تقوم بالهجوم الاول ، حتى شهد سفينة كليوبترا الرئيسية تطوي علمها وتذهب بقواتها الى الخصم ، ففتحت هذه الخيانة عيني انطونيو .

وجرى في غضبه إلى القصر يبحث عن هذه المرأة الغادرة . وكانت قد توقعت ذلك فاختبأت في قبرها مع تابعتين لها، واذاعت انها قتلت نفسها ، فلم يكد يسمع هذا حتى تغلب حبه على غضبه وأمر تابعه أن يطعن قلبه بخنجره لأنه لم يعد يرغب في الحياة بعدها، فلم يرض الخادم الامين أن يصنع ما أمره به ، وتحول الى قلبه هو وطعنه بخنجره فخر صريعاً عند قدمي مولاه . فصرخ انطونيو :

« لقد علمني العبد والمرأة كيف أموت ! »

وطعن نفسه في الحال فخر مضرجا بدمه ..

وزار اكتافيوس كليوبترا فوجدها غارقة في بحر من

الاحزان! ، وقد امتنعت عن الاكل ، فبعث اليها يقول إنه سيقتل اولادها اذا هي أساءت الى نفسها . ولم تجد فيه ما وجدته في سابقيه . فعادت الى قصرها وتظاهرت بالهدوء وكتبت اليه خطاباً ، وطلبت سلة من التين . وبعد أن فحصتها خبأت فيها « صلا » ورقدت ، فتسلل الصل اليها ولدغها في ذراعها فقتلها في الحال .

ودفنت بجوار انطونيو تنفيذاً لطلبها وكانت وفاتها في التاسعة والثلاثين وأصبحت مصر بعدها ولاية رومانية .

وهكذا قضت كليوبترا نحبها بعد أن خلفت في التاريخ قصة أشبه ما تكون بقصص الف ليلة وليلة ! ..

الزباء

" ٢٦٠ - سنة م "



الزباء أو زنوبيا ملكة الشرق ، هي زوجة أذينة الذي كان أميراً مطاعاً ، وزعيماً على عدة قبائل في الصحراء ، وقد ساعده الجد فأصبح سيد الشرق ، فخطبت محالفته الرومان واطلقوا عليه لقب « أغسطس قائد الشرق » . وقد كسب بالفعل عدة انتصارات بمحالفته لروما ضد شاه العجم فرده بجيشه مرتين الى اصفهان قاعدة بلاده .

غير ان ابن أخيه ذهب ضحية مجهول في احدى غزواته ، فانتقمت زنوبيا لزوجها بتخريب ميثونيوس . ولما كان أولادها الثلاثة صغاراً لا يصلحون لتولي الحكومة ، فقد حكمت في أول الأمر باسمهم ، ثم أعلنت نفسها بعد ذلك ملكة على مقاطعات زوجها ، ولبست تاج الملك .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين عند كتابتهم عن زنوبيا فذكر بعضهم أنها ابنة زعيم عربي اسمه عمرو بن ضارب بن حسان، ويزعم آخرون أنها يهودية . أما هي فكانت تزعم انها من سلالة ملوك مصر المقدونيين .

وكانت في جمال كليوبترا الا انها تفوقها في الخلق والحمية .وكان

ذكاؤها نادراً ، وكانت متفقهة في اللاتينية، واليونانية، والمصرية. وكان فلو تجنس المشهور أستاذها ، كما كانت كتب هومر وافلاطون معروفة عندها ، وكانت تكتب اليونانية بسهولة ، وجمعت تاريخ الشرق ونسقته لنفسها .

وكما كانت مشهورة بجمالها كانت مشهورة بشجاعتها ودهائها وبأسها ، فكانت تتبع زوجها في الصيـــد ولا ترهب الحيوانات المفترسة أسداً كان أو نمراً .

ويرجع الفضل في انتصارات زوجها إلى بأسها وحصافتها وبُعد نظرها ، إذ لم تكن تعرف الضعف ، ولا تلك العواطف التي تنطوي عليها الملكات .

ولما حكمت عاملت الرعية بالعدل وسارت فيهم سيرة حكيمة فكانت اذا اضطرت أن توقع جزاء ، أضعفت في نفسها عوامل الرحمة، واذا رأت محلا للعطف قاومت فيها عوامل الانتقام . وفي كلا الحالين انما كانت تصدر عن ارادة تخضع النفس أمامها للعقل، كما كانت في حياتها العامة تعطف على الرعية عطفها على الأمراء الصغار .

وكانت في سياستها المالية للدولة تغدق المال إغداقاً على الشعراء والفلاسفة والفنانين والعظماء ، وتستقدمهم من البلاد النائية ، وتجمعهم حولها . وكانت تجزل العطاء لحاشيتها عند المناسبات ، وفيما عدا ذلك كانت مدبرة في شؤون الدولة الى حد اتهمت معه بالتقتير .

وكانت تقيم في قاعدة ملكها تدمر (بالميرا) التي قيل إن

سليمان قد أنشأها مركزاً لاستراحة القوافل من وعثاء السفر في الصحراء ، فبلغت من العظمة والجمال والقوة في أيام ملكها مـا جعلها قبلة الشرق والغرب .

كانت تحيط بها الحدائق الغناء والنخيل من كل جانب ، كما كان بها عمارات من المرمر ، وكانت شوارعها ممهدة نظيفة . أما حدائقها فكانت تخلب الابصار . وكان فيها معبد للشمس مشهور آية ً على حذق الانسان ومهارته في فن العمار ، تقوم في وسطه اهرامات دقيقة وقباب وبروج وعمدان لاعداد لها . وفي قلب المدينة كان يرتفع القصر الملكي الذي كان يبدو من اتساعه وعظم قبابه وكأنه مدينة داخل مدينة .

وأضافت زنوبيا الى ممتلكات زوجها بلاد مصر ، فأصبحت مملكتها تمتد من الفرات الى البحر الابيض المتوسط ، بما في ذلك القدس وأنطاكية ودمشق وبلاد أخرى مشهورة في التاريخ .

الا ان امبراطور روما رفض أن يعترف بها ملكة على ولايات زوجها ، فبعث اليها بجيش مرة بعد مرة فكانت تهزمه في كل مرة شر هزيمة .

ولما صار أورليأن المفترس امبراطوراً على روما أغضبه تجرؤ امرأة على طلب مخالفة روما وتحديها لسلطانه ، فلم يكد ينتهي من اخضاع منافسيه في الغرب حتى حوّل جيشه الى تلك الملكة القوية التي تجرأت على أن تسمي نفسها اوغوستيا ، وأن تلبس أولادها ملابس ملوك الرومان الارجوانية .

وحين شاع اقتراب الجيش استعدت زنوبيا للقائه .. وجاءت

النذر بقدوم رسل أورليان يطلبون منهـا الاذعان لمولاهم ، وكانت ساعتئذ خارج المدينة تطارد النمور والاسود ، فلما بلغها الخبر عادت من القنص على عربتها ونادت خادمها قائلة :

« مر خدم الامبراطور أن يقتربوا لنسمعهم » .

فاقتربوا فقالت لهم :

« أدوا رسالتكم » .

فقالوا : « منذ عـدة سنين ، وثروة مصر والشرق تصب في الخزانة الرومانية ، وأخيراً تحوّل هذا المجرى إلى بالميرا . كانت مصر وسورية وبثنيا وما بين النهرين ملحقات لروما ولم تكن ملكة بالميرا إلا ملكة على بالميرا فقط ، اما اليوم فانها ملكة على مصر والشرق – وهي تدعى اوغستيا الامبراطورة الرومانية – وقد لبس أولادها لباس القياصرة ، فإذا كان القياصرة السابقون قد أقروا لها بهذا الشرف أو سمحوا لها به ، فان أورليـان لم يقر ولم يسمح ، ومع احترامه لعظمة وذكاء زنوبيا فان عليه واجباً نحو مجد وشرف الدولة الرومـــانية ، بحيث يجب أن تعود الامبراطورية إلى حدودها في زمن انطونيو » .

فقالت بصوت هادىء :

« لقد تكلمتم بوضوح كما يجب على الروماني أن يفعل » .

ثم اتقدت عيناها بشرر الكبرياء واستطردت قائلة :

« والآن اسمعوا إليّ ، وكما تسمعون انقلوا القول إلى موفدكم. قولوا له إني كيفما أكون فقد كونت . وان الامبراطورية التي رفعتني إلى العرش قد صاغها زوجي معي . انها ليست منحـــة

ولكنها ميراث وغزو وتملك . ولو تخلى مرسلكم عن ممتلكاته أو بعضها بمجرد السؤال سأتخلى عن مصر وعن شواطىء البحر الابيض المتوسط . حدثوه اني كما عشت ملكة ، فان شاء الله سأموت ملكة. وإذا كان طموحاً فأنا طموح أيضاً، واني لأطمح في امبراطورية أكبر وفي شهرة غير ملوثة ، وفي حب رعيتي لي.»

وصرفت الرسل بكبرياء، وأخذت تستعد للدفاع عن حقوقها وعن مملكتها . ولم تنتظر حتى يأتي امبراطور الغرب إلى بلادها، بل سارعت إلى لقائه ، واصطدمت معه في معركتين عظيمتين كانت تقود الجيش فيهما بنفسها ، ولكنها هزمت في كلتيهما واضطرت إلى النكوص حتى أبواب تدمر ، فعمدت إلى اقامة تحصينات مهمة ، ونازلت أورليان من بروجها فهزمته في أول المعركة ، حتى اضطر أن يكتب عنها :

« ان الذين يتكلمون باحتقار عن الحرب التي خضتها ضد امرأة يجهلون طبيعة زنوبيا وقوتها .. فمحال أن نحصر استعدادها الحربي بالحجارة والسهام ، وبمختلف أنواع الاسلحة والادوات الحربية » .

ولما كان أورليان يشك في نتيجة الحصار فقد كتب اليها يطلب منها تسليم المدينة ، فرفضت طلبه بإباء ، فجرح ردها عزته وأخذ يمنع وصول المؤن اليها من حلفائها، فلم تستطع المدينة ان تبقى طويلاً على الحصار . وفكرت الملكة في الفرار لتطلب المساعدة من الجوار حتى تستطيع انقاذ بلادها . وأخذت في تنفيذ الفكرة فامتطت جواداً وانطلقت به حتى وصلت شواطىء

الفرات . ولكنه اقتفى أثرها وأخـذت أسيرة . وجيء بهـا إلى حضرة الامبراطور ، فسألها :

« كيف تجرأتِ على تحدي سلطة روما ؟ »

فأجابته بأنها احتقرت ان تعترف برجـــال كأوروولس ، وجاالينس سادة لها . أما أورليان فهي تخضع له كغالب ومليك.

وطلب الجيش من الامبراطور قتلها ، ولكنه أبقى على حياتها لتحيي انتصاره في روما .

وأخذ طريقه ومعه زنوبيا الى روما ، بعد غزوه تدمر وسلبه كنوزها ، وبعد أن أبقى بها جانباً من الحرس الروماني، ولكنه لم يكد يبتعد قليلاً حتى جاءته الانباء بهياج أبناء تدمر فعاد اليهم وخرّب مدينتهم، ولم يبق على كبير ولا على صغير فيها. وذهبت تدمر في زوايا النسيان ، حتى اكتشفت آثارها منذ قرن واحد .

وبلغ الامبراطور روما ، وحيته الجماهير على انتصاره،ومرت زنوبيا في الموكب وقد قيد ذراعاها بقيود من الذهب ، وكان يعينها من الجانبين بعض الرقيق على حملها لثقلها .

وقد اختلف المؤرخون في حياتها بعد الأسر ، فقال بعضهم انها قتلت نفسها جوعاًحتى لا ترى بعينها مصرعها ومصرع بلادها. وقال بعضهم ان الامبراطور وهبها داراً ذات حـــديقة جميلة فعاشت فيهـا محترمة ، وزوجت بناتها مـن أشراف العائـلات الرومانية ، وصار ابنها الأصغر ملكاً على جزء من أرمينيا .

مرغريت دانجو

"١٤٢٩ - ١٤٨٢"



كانت مرغريت دانجو أصغر بنات رينيه دوق أنجو ، وكان أبوها ابن لويس الثاني ملك نابلي وصقلية والقدس وسل ، ومع ان رينيه كان الوارث لعدة ممالك ، إلا انه عند تزويجه لابنته لم يكن يملك شيئاً ، فبدلاً من أن يمهرها مهراً يليق بمقامها فانه سلك في ذلك الموضوع مسلكاً خاصاً .

وكان هنري السادس ملك انكلترا الذي خربت حرب الثلاثين بلاده ، راغباً في الزواج ، فبث وكلاءه يخطبون له ، وكانت مرغريت من بين الأميرات اللاتي انتخبن للملك الأعزب. وكانت قد بعثت له بصورتها فلم يعجبه من بين الأميرات غيرها ، وبادر إلى طلب يدها .

ووافق والدها على الزواج بشرط أن يكون بائنة العروس جمالها وأدبها ، وصرح بأنهما يرجحان في القيمة ثروة العالم. ولم يقف عند هذا بل طلب الى العريس أن يرد اليه مقاطعتي انجو ومين اللتين كان قد اغتصبهما منه .

والواقع أن والد مرغريت رغم حيازته لعدة ألقاب رفيعة ، فانه كان صعلوكاً ملكياً . فقد أخرج من نابلي ، وأخذت منه

انكلترا « انجو » و « مين » ، واضطر أن يرهن بقية ممتلكاته ليدفع الفدية عن نفسه لدوق بورغنديه الذي احتفظ به أسيراً مدة ستة أعوام ، فبقي بعد ذلك لا يملك قصراً ولا فداناً من الارض .

وعاد رسول هنري الذي كان قد أوفده في هذا الشأن يحمل تلك المطالب العجيبة ، فرضي بها الملك وأرسل وكيلاً عنه ليجري العقد ، وتم ذلك بالفعل في تشرين الثاني عام ١٤٤٤ . وكانت في الخامسة عشرة من عمرها ، وكان هو في السادسة والعشرين .

وسافرت العروس الى انكلترا لتقابل الملك هــنري الذي تزوجت منه بالتوكيل ومعها عدد من النساء النبيلات . وكم كان سفراً شاقاً على عروس . فقد سافرت ولا مال لديها ولا ملابس كافيــة ، ولم تكد تصحو من دوار البحر حتى أصيبت بالجدري . ومن حسن الحظ ان أثره كان بسيطاً . ومما يلفت النظر ان فاتورة الطبيب التي قدمها نظير عيادته لملكة انكلترا في أثناء السفر والمرض بلغت ٣ جنيهات و٩ شلنات وبنسين ! !

ولم تكد مرغريت تجلس بعد ذلك على العرش حتى تجمعت عليها المصائب ولزمتها البقية الباقية من عمرها .

وكان كل من الملك والملكة في حاجة الى النقود ، فأخذ أحد الكرادلة الاغنياء يمدهما بماله ويفرض نفوذه عليهما . ولكنه ما لبث ان توفي وبقيا بلا معين . فابتدأت أعراض الصرع تبدو على الملك ، ووقعت المملكة بذلك في يدي الملكة الفتية التي لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة . الا انها وجدت نفسها مضطرة للاعتماد على «المركيز صفولك» الذي رفعه الملك الى تلك المرتبة ، وهو الذي

كان وكيلًا عنه في زواجه منها .

وكانت الحرب قد تجددت بين فرنسا وانكلترا في عام ١٤٤٨ وكتب النصر فيها لشارل السابع وغزا نورماندية . فكان وقع هذه الهزيمة على الشعب الانكليزي شديداً فازداد كرهاً على كرهه للملكة مرغريت وأطلق عليها اسم « المرأة الفرنسية » كما كان يردد :

« ان السجن أحق بالملك هنري من العرش » .

وعاد دوق سمرست من فرنسا مخذولاً حيث فقدت انكلترا جميع الولايات التي كانت لها هناك ما عدا كاليه ، فأوقع الشعب الاثم في ذلك على الملكة . وجاء دوق اوف يورك من ارلندا واتهم سمرست في البرلمان ، فانتهى الامر باعتقاله .

وكان مرض الملك قد ازداد حتى لم يعد في الامكان اخفاؤه ، كما كان قد رزق في ذلك الحين وارثا للملك . فانتهز دوق اوف يورك الفرصة وادعى السلطة لنفسه . وقد بقي الملك أكثر من عام لا يعي قط ما يجري حواليه . ولما بلغ ابنه من العمر ١٥ شهراً عادت الى أبيه ذاكرته وابتدأ يتعرف على ولده وامرأته .

في يوم الاثنين ، عند الظهر ، أتت الملكة اليــه ، وجاءت بالامير معها . فسأل : « ما اسم الامير ؟ » فقالت له الملكة : « ادوارد . » وعندئذ رفع يديه وشكر الله . وقال إنه لم يعرفه حتى الساعة ، وانه لم يكن يهتم بما يقال له ، ولا أين هو طوال أيام مرضه ، ثم سأل عن عمر ابنه فقالت له الملكة عنه ، واكتفى بذلك .

اهتمت الملكة للأمر ، وأخذت تستعد لاعادة الملك إلى

سلطان الحكم ، ولكنه كان ضعيفاً جـــداً ، فحمل إلى مجلس الاعيان ، وحل البرلمان وأطلق سراح سمرست .

هيأ دوق اوف يورك جيشاً بمساعدة آخرين وجاء بـه قرب لندن ، وكان الملك يكره سفك الدماء فأرسل اليهـــم رسولاً يسألهم :

« لماذا جهزوا جيشاً ضده ؟ »

فأجاب دوق اوف يورك انه لن يغمد سلاحه ما لم يسلم دوق اوف سمرست الى العدالة . فأبى الملك ، ووقـــع هجوم قصير سفكت فيه دمـاء كثيرين وقتل سمرست ، وجرح الملك نفسـه بسهم أصابه في عنقه . ولكنه لم يتحرك من مكانه ، وبقي وحده تحت العلم الملكي . ونشأ عن ذلك ان عاد الى الملك مرضه واستبد دوق اوف يورك بكل شيء ، وترك للملكة أمر العناية بزوجها الملك ، على أن تبقى معه ومع طفلها في هوتفورد كاسل .

فبقيت الملكة هناك عامين . ولكن حدث بعدهما أن عاد الى الملك رشده . فعاد الى البرلمان وطلب استرداد سلطته الملكية ، فسمح له البرلمان بهـا ، فاضطر دوق اوف يورك الى الاعتزال ، وعادت الحكومة الى ايدي أصدقاء الملكة . وأولم الملك لدوق اوف يورك ولانصاره وليمة تعاهدوا فيها جميعاً أمام المذبح ، على أن يغسل الطرفان قلوبهم من الضغينة ، وان يحل الصفاء محل الشقاق .

ولكن هذا الصفاء لم يدم أكثر من عام . اذ زحف أنصار دوق اوف يورك على لندن بحجة سخيفة وحاصروهـا . فاصطدم

الملك معهم في ٩ تموز « يوليو » سنة ١٤٦٠ في معركة دامت ساعتين ذبح فيها عشرة آلاف انكليزي وأخذ الملك أسيراً .

ولما شاهدت مرغريت ذلك أخذت طفلها وفرت الى معقل في نورث ويلز ، فاضطر دوق أوف يورك الملك الى أن يكتب أمراً يطلب فيه عودة الملكة مع الامير الى لندن متهماً أياها بالخيانة العظمى . فكتب لها الملك ، وتسلمت مرغريت هذه الدعوة وهي في اسكوتلاندة تطلب مساعدة ملكها لها . فكان جوابها على ذلك أن سارت بجيش عظيم الى يورك ، فدارت حولها معركة قتل فيها دوقها .

وسارت مرغريت من ثم الى لندن لتنقذ الملك . وكان اليوركيون قد وضعوا أيديهم على البلد فتسلل الملكيون الى الشوارع ، وجرت حرب دموية دارت فيها الدائرة على اليوركيين ، فلاذوا بالفرار تاركين الملك في خيمته . ولكن هذا الانتصار لم يطل ، اذ جاء الى لندن ابن دوق يورك بمظهر الملك فاستقبله الاهالي بالفرح والتصفيق ، مما اضطر العائلة الملكية الى أن تبحث عن مأوى أو مساعد ، فسافرت الملكة مع ابنها الى فرنسا ، وطلبت مساعدة لويس الحادي عشر ، وعادت فهزمت خصومها .

ولكن انتصارها كان كذلك قصيراً ، اذ اضطرت للفرار الى الى حدود اسكوتلاندة ومعها كل مجوهراتها . فخرج عليها في الطريق جماعة من قطاع الطريق فسلبوها اياها واشتبكوا مع جماعتها . فهربت مع ولدها في جوف الليل الى غابة هناك ، ولم

تكن تعرف شيئاً عن زوجها لانه كان قد اتخذ طريقاً آخر للفرار . ولما بزغ القمر في الغابة رأت رجلاً يتقدم اليها فخافت ثم تشجعت وقالت له في لهجة الملوك :

« هنا يا صديقي ابن ملكك فأنقذه . والى أمانتك أكِلُهُ. خذه وأخفه عن عيون الذين يبحثون عنه وأمنه في بيتك » .

ولم يذهب نداؤها عبثاً إذ قادها ذلك الفارس الى مغارته ، وقامت امرأته بخدمتها . وسميت هذه المغارة بعد ذلك بمغارة الملكة مرغريت . وفي اليوم التالي التقت ببعض الاصدقاء فعلمت منهم ان زوجها حي ، فعادت معهم إلى اسكوتلاندة ثم الى فرنسا. ورمى بها القدر في يد خصم والدها دوق برغندية ولكنه أكرمها الاكرام كله. ومن هناك ذهبت الى أرض أبيها وعاشت مع ابنها سبع سنوات بدون لقب الملوكية .

وزارها هناك بعض أنصارها وأقنعوها بالرحيل الى انكلترا واثارة معركة أخيرة حاسمة . فذهبت مرة أخرى، وكانت نتيجة هذه المحاولة الجديدة ان أخذ ابنها أسيراً ، ثم قتل في حضرة الملك ادوارد ابن يورك ، ثم أسرت هي في اليوم التالي وأمر بسجنها في قلعة لندن . وفي الوقت نفسه أعدم زوجها . ولكن بناء على توسلات زوج الملك ادوارد التي كانت وصيفة لمرغريت ، أطلق سراحها بعد ان تنازلت عن كل حق لها كسبته في انكلترا .

وهكذا قدر لهذه الملكة ان تحيا في الحكم وخارج الحكم في شقاء وآلام !

إيزابيلا الإسبانية

"١٤٥١ - ١٥٠٤"



في ٢٢ نيسان (ابريل) عام ١٤٥١ ولدت الأميرة ايزابيلا في قصر ملك كاستيل .. وكان أبواهـا من نسل جون اوف جونت دوق لانكستر .

وفي ١٠ اذار (مارس) من العام التالي ولد فردناند ابن الملك جون اوف اراغون ، وكانت اراغون وكاستيل مقاطعتين اسبانيتين .

ومات أبوها وهي في الرابعة ، وصار أخوها هنري ملكاً على كاستيل. ولما كان لها أخ آخر اسمه الفونس لم يكن هناك رجاء في اعتلاء العرش . فبقيت مع أمها في مدينة ارفالو الصغيرة حيث عني بتربيتها . وهناك ظلت تتعلم حتى الرابعة عشرة من عمرها .

وقد ضُحيت الاميرة تقريباً على مطامع أخيها الملك ، اذ طلب منها الزواج من رجل غني عجوز من أشرار النبلاء ، وأخذ في اقامة الترتيبات لاتمام هذا الزواج ، فكان ألم الاميرة عظيماً حتى انهـا حبست نفسها في مقاصيرها وأخذت تتوسل الى الله بالتأوهات والدموع ليخلصها من هذا البلاء ، وكأن الله استجاب لها ، فقد خرج ذلك العجوز يوماً من قصره ليرى عروسه فأصيب

بالتهاب في الترقوة فمات .

وجاء اليها أشراف كاستيل يسألونها ان تكون ملكة عليهم ، بدل أخيها الذي يكرهونه ، فأبت عليهم ذلك . ولما كان أخوها الفونس قد توفي ، فقد اضطر الاشراف الملك أن يعلن أنها وريثته في الملك ، وأن يعد بألا يضطرها للزواج ممن لا تريده .

وطلب يدها ملك البورتغال ، وهددها أخوها بالسجن اذا رفضت الزواج منه . ولكن القدر تدخل كذلك في هذه المرة ، اذ كان الامير فرديناند اوف اراغون سبق ان طلب يدها وكانت راغبة في الزواج منـــه ، فعزمت على مخالفة أخيها بالتزوج من الامير . وتم لهـــا ما أرادت ، وحاول الامير أن يسافر للقاء عروسه فمانع أخوها في دخوله عاصمة بلاده .

ولما لم يكن في مقدرة فرديناند أن يأخذ معه حرساً لانهماك أبيه في حرب مع النبلاء ، فقد اختار أن يذهب متخفياً في زي تاجر برفقة ستة من أصدقائه ، فبلغ العاصمة بعد مشاق وأهوال . وهناك التقى بعروسه وبقي معها ساعتين ، ثم خرج وأتم معدات الزواج في قصر أحد النبلاء . وكان كلاهما بلا نقود ، اذ خرجت الاميرة من القصر خلسة ، كما سرقت أموال الامير في الطريق ، فاضطرا لاقتراض النقود التي تكفي لتأمين نفقات العرس .

وكان الامير في الثامنة عشرة من عمره تلوح على وجهه امارات الذكاء ، جميل الطلعة ، ممشوق القوام . وكانت الاميرة تصغره بعام واحد ، وقد وصفها أحد معاصريها من الكتاب فقال :

« أجمل امرأة رأيتها وأكرم واحدة في الاخلاق » !

وقد توفي أخو ايزابيلا في عام ١٤٧٤، فاعتلت بعده العرش، وكانت في ذلــك الوقت في سيجوفيا فسافرت الى مقر الملك والشعب يهتف لها في كل مكان. فهاجمها الفونس الخامس ملك البورتغال، وانضم اليه اسقف توليدو القوي، فهيأت مع زوجها جيشاً التقى بجيشهما عند طورو. وجاء الليل وهطلت الامطار بشدة، واختلط الدم بالماء، وساءت حال البورتغاليين. فكُتب الملكة وزوجها النصر. وقد أظهر فرديناند مروءة كبيرة، اذ كان يطعم الاسرى ويكسوهم ويعيدهم آمنين الى بلادهم. ولما علمت ايزابيلا بهذا النصر أقامت الاحتفالات ابتهالاً لله، وخرجت على رأس المواكب حافية القدم حتى كنيسة سان بول.

وفي عام ١٤٧٩ مات ملك اراغون فترك لابنه فرديناند مقاطعتي اراغون ونافارا فوحدهما مع كاستيل تحت حكمه وحكم ايزابيلا، وبذلك تكونّت مملكة اسبانية عظيمة.

وأخــذ فرديناند وايزابيلا يضعان تصميماً لغزو غرناطة، وكانت آخر ما بقي في يد العرب في بلاد اسبانيا، فحاصرا ملقا وحاولا ان يرشوا قائدها فلم يستطيعا، فضيقا عليـه الخناق براً وبحراً حتى اضطرت الاهـالي ان تأكل لحم الخيـل والكلاب والقطط. وبعد أخــذ ورد اضطرت الى التسليم في ١٨ آب (اغسطس) عام ١٤٨٧ ودخلاها بموكب ديني فخم.

وجيء بقائد المدينة مثقلاً بالقيود، وسئل لماذا ألح في القتال ولم يسلمها، فأجاب انه أمر بالدفاع عنها حتى النهاية ولو عاونت العدو لمات قبل تسليم المدينة.

وقضي على السكان جميعاً وعددهم ٢٠٫٠٠٠ نسمة بالعبودية ، وأرسل بثلثهم الى افريقية بدل الاسرى الاسبانيين هناك، وبيع البعض الآخر سداداً لنفقات الحرب، كما أهدت الملكة بعضهم الى البابا وملكة نابلي وملكة البورتغال ، وصودرت أملاكهم .

وكان الملك والملكة قد تعاهدا على اجلاء العرب عن شبه الجزيرة ، فحاصرا – بعد ذلك النصر المبين – بازا ثم غرناطة ودارت بينها وبين العرب معارك يشيب لهولها الطفل، وقد لعبت ايزابيلا في تلك الحروب دوراً مهماً . وحسبك ان مجرد ظهورها بين الجنود الاسبان كان يثير فيهم روح الحماسة ، وكان لها خيمة في المعسكر مؤثثة أفخر أثاث . وقد حدث في إحدى الليالي ان اشتعلت النار في إحدى ستائرها الحريرية ، وامتدت من خيمة الى خيمة حتى باتت حياة الملكة وأولادها في خطر . فأراد الملك ان يتفادى وقوع مثل هذا الحريق ؛ فأقام حيث يعسكر مدينة بناها الجند في ثلاثة شهور . وقد رغبوا في تسميتها باسم إيزابيلا ولكنها رفضت وسمتها « سانت في » تيمناً ، وما زالت هذه المدينة قائمة حتى اليوم .

ولما رأى العرب أن الاسبانيين جادون في محاصرتهم ، وانه لا مفر من سقوط المدينة ، سلموا غرناطة في ٢ كانون الثاني « يناير » وبذلك تم لها الانتصار على العرب في كل مكان . وعندئذ هرع أشراف الاسبانيين الى حضرة ايزابيلا وركعوا أمامها وقبلوا يدها ويد زوجها اعترافاً لهما بالسيادة .

وحدث قبل ذلك أنه لما كان الملك والملكة في «سانت في» جاء

الى معسكرهما خرستوف كلومبس وعرض عليهما فكرته المشهورة ، فاعتذروا باستحالة النظر في هذا الأمر الآن ، لانهما كانا في تلك الحرب ، فخرج كلومبس حزين القلب يفكر في عرض أمره على ملك فرنسا . ولكنه التقى بمعلم الملكة وعرض عليه فكرته فاقتنع بها ، فكتب كتاباً لايزابيلا يحثها فيه على مساعدة كلومبس على تحقيق اكتشافه .

وعاد بالكتاب اليهما فطلبا منه أن يشرح مطالبه فقال :

« أريد بضعة مراكب وبعضاً من البحارة ليقطعوا ما بين ٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ ميل عبر المحيط بقصد رسم طريق مختصر جديد الى الهند وكشف أمم جديدة عظيمة في الثروة والقوة » .

فقال الملك ان الحروب قد أنهكت خزائن المملكة ، فليس فيها ما يساعد على مثل هذا المشروع ، ولكن الملكة كانت قد اقتنعت بأهميته فقالت :

«سآخذ هذا المشروع لحساب مقاطعة كاستيل وسأرهن حليي لأمده بالنفقات اللازمة » .

وهكذا يرجع اكتشاف القارة الجديدة لشجاعة وهمة امرأة !!

ودعت الملكة خرستوف في الحال وأكرمته ، وأعطته ثلاثة مراكب صغيرة اثنين من الحكومة الاسبانية ، وواحد من أحد أغنياء الاسبانيين . وكان مجموع من اشترك في هذه الرحلة ١٥٠ رجلا ، إذ كان من الصعب اقناع البحارة بالسفر معه لما كان يشوب تلك الرحلة من المخاطر .

وسافر خرستوف ومضت عدة أسابيع لم يسمع عنه شيء . وبعد سبعة شهور ونصف شهر من سفره رجع الى اسبانيا ، وكان الملكان في برشلونة فكتبا له ان يحضر اليهما . وما كاد يدخل عليهما حتى وقفا له ، فقص قصته وقال انه مد مملكتهما الى مسافات بعيدة عبر البحر .

وكرر كولمبس رحلته ثلاث مرات ، وفي المرة الاخيرة جاءت بحقه شكوى تتهمه بأنه يستعبد أهالي « هايتي » ، فأرسل أحد الضباط ليحقق في الامر ، وكان حقوداً عليه فاستعمل سلطته وأمر بإرساله مكبلًا بالحديد الى اسبانيا ، فأثار هذا العمل سخطاً في العالم ، ففك الملكان اساره وأظهرا أسفهما وعطفهما عليه .

وبعد شهور قليلة سافر كولمبس للمرة الرابعة ، وعاد من هناك وقد حطمته المخاطر والامراض والسن . وكانت ايزابيلا على فراش الموت فلم يسعفه الملك بشيء . وهكذا بعد قيامه بهذا العمل العظيم قُدّر له ان يجوع فكتب لابنه يقول :

« اني أعيش بالاقتراض . وما أقل ما ربحته في العشرين عاماً الفائتة التي قضيتها في المشاق والمخاطر . فقد بتّ لا أملك سقفاً في اسبانيا يظلني ، وإذا رغبت في الاكل أو النوم فليس أمامي إلا الخان ، وفي معظم الاحايين لا يكون لديّ ما أسدد به الاجر » .

وهكذا كانت خاتمة هذا البطل على الأرض !

ولا يفوتنا كما أشدنا بذكر الملك والملكة ، ان نذكر شيئاً

من مخــازي البلاط ، فقد كان مشهوراً عنهما انهما مسيحيان متعصبان للكثلكة ، حــتى سمي الملك في التاريخ بفردينانــد الكاثوليكي كما سميت الملكة كذلك ، فأعادا محكمة التفتيش وهي محكمة سرية لها حق الحكم بالحيــاة أو الموت على كل من يُمثل أمامها . وقد عذبت هذه المحكمة كل من لم يكن صادق الايمان، ومثلت بالكثيرين .

وقد أرخ يوم وفاة ايزابيلا في تشرين الثاني (نوفمبر) عــام ١٥٠٤ .

كاترين داراغون

"١٤٨٥ - ١٥٣٦"



لما سقطت مدينة غرناطة الجميلة في أيدي فرديناند وايزابيلا، كانت كاترين داراغون في السادسة من عمرها ، وكانت تسير مع والديها وأختها في الاحتفال بفتح غرناطة . وقبل ذلك التاريخ كانت قد قضت طفولتها في معسكرات الحرب، لان أمها ايزابيلا كانت تتبع زوجها في كل حروبه ، وهي أول من وضع نظام العناية بجرحى الحرب ومرضاها ، كما كانت تدفع للاطباء من مواردها الخاصة أجورهم ، وكان لها كذلك خيم مجهزة بالاسرّة للمرضى والجرحى أطلق عليها « مستشفى الملكة » .

وقد فتنت غرناطة فرديناند بعد فتحها فأقام بها ، ولا عجب اذ كانت تقوم في وسط السهل الواسع ، حيث الليمون والرمان يزهران . وكانت تحيط بهـــا أشجار الزيتون والكروم والتين والبرتقال . وكان أريج الزهور يعبق في الجو فيحلم الانسان بأنه في الجنان . وكانت تحرسها الجبال المرتفعة التي تناطح السماء من الشمال ، كما كان يقوم من الشرق والجنوب سلسلة أخرى منها ، بينما تغسل شواطئها الغربية مياه البحر الابيض المتوسط وتمدهـا بالتجارة .

في عروس أسبانيا وقاعدة بلاد المسلمين فيما سبق ، أقامت كاترين داراغون مع والديها وبقيت بها كل أيام شبابها .

وما أشد تناقض الصورتين اللتين رسمتها الطبيعة في حياة كاترين ، وما أقسى صروف الزمن . فان تلك الفتاة الجميلة المملوءة بجمال المناظر التي حولها كان مقدراً لها ان تغدو ملكة انكلترا المهملة ، وتُهجر من زوجها ، وتموت في الوحدة في بؤس وعوز ! ..

خطبت الاميرة كاترين وهي ابنة تسعة أعوام الى ارثور برنس اوف ويلز أكبر أولاد اليزابث اوف يورك وهنري السابع . وكانت تتراسل مع خطيبها باللاتينية ليتمرن كلاهما على الكتابة بها .

وفي عام ١٥٠١ سافرت كاترين مع مربيتها الاسبانية ، وحاشية من أربع سيدات ، وعدد من الاشراف ورجال الكنيسة قاصدين لندن لاتمام الزواج من الامير ، وقد تم في تشرين الثاني (نوفمبر) .

وكان وشاح زفافها موضع دهشة السيدات الانكليزيات ، إذ وضعت على رأسها عصابة من الحرير الابيض ووشاحاً مطرزاً بالذهب واللآلىء والحجارة الثمينة يبلغ عرضه خمس بوصات ونصف بوصة ، فغطى معظم وجهها وجسمها . وكان ذلك هو القناع الاسباني المشهور . أما ثوبها فكان فضفاضاً ذا طيات كثيرة .

وقد بقيت الحفلات والالعاب والولائم قائمة عدة أيام سروراً بهذا الزواج . ولكن سرعان ما تلبد الجو بالغيوم ، ومات الامير اوف ويلز حيث يقيمان . ولم يكن قد مضى على زواجهما غير أربعة أشهر . فترملت الاميرة العروس في أرض أجنبية . ورأت

ان ترتحل عن ويلز الى لندن ، فاستقبلتها والدة زوجها بعطف و ولكنها ما لبثت ان توفيت بعد عامين . وكان والد كاترين قد وعد بأن يمهرها بمبلغ ٢٠٠،٠٠٠ كرون .

ولكنه لم يدفع من هذا المبلغ الا جزءاً ، ولذلك أبى هنري السابع أن يسمح لزوجة ابنه بنصيبها الذي أعطاه لها ارثور هدية للزواج .

وتعرضت الارملة الصغيرة في هذه الفترة الى عدد من الدسائس اذ اعتزم هنري السابع في أول الامر الزواج منها ولكنها رفضت ذلك ، فعرض عليها أن يزوجها من ابنه هنري الذي صار أمير ويلز فوافق والد كاترين ووالدتها على هذا الزواج ، ولم يكن هنالك بد من اذعانها . وكان قد ساء حالها لان أباها لم يدفع متأخر بائنتها فحجز عنها هنري ما كان لها عند ابنه ، فباتت في حاجة الى الملابس ، ولم يكن بين يديها من المال ما تدفع به أجور الخدم ، ولم تحرك الشفقة أحد الملكين ، ولم تقو أمها على مساعدتها لانها كانت على فراش المرض .

وماتت أمها ، ومات والد زوجها ، وتم زواجها بعد وفاته بثلاثة أشهر من هنري الثامن فأحبها وتفانى فيها . ودفع أبوها المبلغ المتنازع عليه من قبل . فكتبت اليه تعبر له عن سرورها ، وانه بات في طاقتها أن تدفع اليوم للخدم مرتباتهم التي طال عليها الزمن . وفي عام ١٥١٠ رزقت ولداً ولكنه لم يعش الا بضعة أيام ، ثم مات لها طفل آخر ، واخيراً ولدت الاميرة ماري عام ١٥١٦ .

وفي عـام ١٥٢٢ أرسل الملك في طلب انا بولين من فرنسا وألحقها بوصيفات الملكة . ومنذ ذلـك الحين حلت النكبات بالملكة المسكينة التي كانت آيـة في انكار الذات والاخلاص والامانة . فقد ابتدأ ذلك الملك المنافق بعد زواجه من الملكة بسبعة عشر عاماً يحس بوخز ضميره لاقدامه على الزواج من أرملة أخيه المتوفي مع انه ظل يغازل انابولين الجميلة سبعة أعوام ، وحتى عام ١٥٢٧ لم يكن قـد اعلن تلك البادرة المفاجئة من يقظة الضمير .

وأخيراً تشجع الملك العاشق وصرح للكردينال ولسي بمـا يعاني من عذاب الضمير لزواجه من أرملة اخيـه ، فأشار عليه بالطلاق . فكان جواب ذلك المنافق : ان هذا الامر شديد عليه ولكن لا بأس من ركوب هذا المركب الصعب ما دام فيه اراحة لضميره ! ..

وألفت المحكمة وسيقت القسس والاساقفة والكرادلة ليصفقوا لهـذه الغيرة الدينية ، وليصادقوا على اراحة ضمير ذلك الملك المعذب !

وليس في طاقتنا أن نذكر تفاصيل تلك المناظر المثيرة ، ولم يكن لكاترين المسكينة من يدفع عنها النكبات التي اعتزم زوجها أن يوقعها عليها . وحاول هنري أن ينتحل المعاذير لاقدامه على هذا العمل الشنيع فقال فيما قاله إنه لم يعش لهم من أولادهم التسعة الا الاميرة ماري لغضب الله على ذلك الزواج !

وفي عام ١٥٢٩ دعيت الملكة كاترين الى المحكمة لسماع الحكم.

وصاح المنادي :

« يا هنري ملك انكلترا ادخل الى المحكمة » .

فأجاب وهو على عرشه بصوت مسموع :

« اني هنا » .

وتقدم ليحط أثقاله ويريح ضميره من الناحية الدينية ، وقد ختم أقواله بالثناء على فضائل كاترين زوجه المحبوبة ، وان السبب الوحيد الذي يفرق بينهما هو تأنيب ضميره المعذب .

وصاح المنادي بعد ذلك : « كاترين ملكة انكلترا » .

فقصدت حيث يجلس الملك وركعت أمامه ووجهت اليه هذا الخطاب المؤثر :

« مولاي أتوسل اليك حباً في الله أن تنصفني بعض الانصاف ، وأن تشفق عليّ ، وترحم غربتي ، فأنا امرأة غريبة في بلادك ، وليس لي من هاد في هذه الارض ، وبما أنك رأس العدالة في مملكتك فأنا أفر اليك منك . واحسرتاه ، اني لاشهد الله اني كنت لك في العشرين عاماً أمينة متواضعة طائعة ، واذا كان أولادنا قد ماتوا فانه لم يكن ذلك عن تقصير في عناية الأم أو نقص في حبها . أن أباك الملك كان معدوداً سليمان زمانه ، وكان أبي أحكم ملوك أسبانيا ، وكان لهما مشيرون حكماء كشيري هذا الزمان ، وقد فكرا في زواجنا وعرفا انه زواج مشروع . لذلك أعجب كثيراً لهذه الدسائس التي أثيرت ضدي . أما اذا كنت وجدت أثراً للخيانة في سلوكي فأنا أرحل قانعة ، ولكن اذا لم يكن هنالك شيء من ذلك ، فأنا أتوسل اليك بخضوع أن تدعني

أبقى في محلي » .

ثم نهضت باكية وخرجت ولم تعد الى المحكمة رغم صياح المنادي في طلبها . فأرسل اليها الملك الكردينال ولسي وآخرين لمباحثتها في الأمر ، فوجدوها مع حاشيتها منهمكة في أعمال يدوية تستعين بها على قطع ساعاتها الطويلة . ولم يستطع أولئك الرسل ان ينالوا منها جواباً .

وعمل الملك كل ما يستطيع ليأخذ منها اقراراً بالطلاق فلم يفز منها بطائل . وفي النهاية كتب اليها يعرض عليها مسألة التحكيم فكتبت اليه انها لا تقبل حكما بينها الا البابا في روما . فأثار هذا الجواب ثائرة الملك ، فحرمها من ابنتها وأرسل أوامره المشددة بضرورة تركها القصر ، فكان جوابها : « انه زوجي ولا بد لي أن اطيعه » .

وبادرت بعد مغادرتها القصر بالكتابة الى البابا كانت تخبره بطردها من القصر . فجردها الملك من لقب الملكة ، وحل بنفسه الزوجية بقرار أصدره في مجمع الاساقفة . ويقول بعض المؤرخين انه تزوج من انا بولين قبل أن يصدر قرار المجمع بطلاق كاترين .

وأبعد الملك عن كاترين حاشيتها حتى لا يقوم بخدمتها من يلقبها بصاحبة الجلالة ، وقرر أن يرسلها الى محل اشتهر برداءة جـوه ، فرفضت وقالت انها لا تذهب الى هناك الا اذا جرت بالحبال . فعدل الملك عن ذلك وأرسلها الى كمبولتن ، وقطع عنها ايرادها الذي كان يجيئها باعتبار انها أرملة ارثور ، فبقيت في حاجة ملحة .

وكانت كاترين اذا سمعت احدى خادماتها تلعن انا بولين في

ثورة غضب ، تقول لها :

« امسكي عليك لسانك لا تلعنيها لانك بعد زمن قليل سترثين لها » .

ولما اقتربت منها المنية وجهت الى زوجها رسالة مؤثرة جاء فيها :

« مولاي وزوجي العزيز أنا أسلم نفسي لك ، لقد دنت ساعة وفاتي ، وحبي لك يدفعني الى كتابة بضع كلمات ترد عليك أمنك وصحتك بسبب طرحك اياي في غمرة الآلام ، وطرحك نفسك في غمرة الهموم ، أما عني فأنا أسامحك وأسأل الله أن يسامحك ، وأما عن الباقي فأنا أسلم ماري ابنتك لعنايتك راجية ان تكون لها أباً طيباً ، كما أرجوك بالنسبة لخادماتي أن تمهر ثلاثاً منهن وأن تعطي الأخريات أجرة عام فوق استحقاقهن .. »

ولفظت كاترين نفسها الاخير في عام ١٥٣٦ وقيل أن الملك هنري بكى عند قراءة خطابها المؤثر ، وقيل في الوقت نفسه انه حاول أن يوقع الحجز على أمتعتها القليلة كما حاول ألا ينفذ ما جاء في وصيتها !

وقد كانت حياة المرأة التي خلفتها في قلب زوجها قصيرة مملوءة بالاحزان ، اذ لم تمر أربعة أشهر على وفاة كاترين حتى لقيت انّا بولين مصرعها ، فقد مال الملك الى جين سيمور فنبذ انّا بولين وقضى عليها بالاعدام ! ..

حقاً أن للقدر تصرفات يغيب فهمها عن كل انسان ! ..

كاترين دي مديسي

"١٥١٩ - ١٥٨٩"



كانت كاترين دي مديسي امرأة مجردة من كل غريزة نسائية وفضيلة انسانية ، وقد قتلت كل احساس رقيق وعاطفة نبيلة في قلوب الذين كانوا يحيطون بها .

تلقنت مبادىء مكيافلي التي تقول بالقوة والخداع والقسوة والمواربة لبلوغ الغاية، فوعتها وزادت عليها فيما بعد مبادىء تعبر عن الشرور والآثام ، حتى صارت فظائع محكمة التفتيش في أسبانيا تتضاءل أمام فظائع مذبحة سانت بارثولوميو التي أثارتها . وصار فيليب الثاني « شيطان الجنوب » كما كانوا يدعونه شيئاً لا يذكر أمامها ، لانه على الاقل كان يزعم انه يدافع عن الدين فكان يرى في محكمة التفتيش أداة لنصرة الكنيسة الكاثوليكية . أما كاترين فامرأة لا دين لها ولا ايمان ، فلا هي تهتم بالكاثوليك ولا بالبروتستانت ، ولا تأبه لكنيسة روما ولا للإصلاح . وكل اهتمامها كان منصرفاً الى اشباع شهواتها الشريرة .

وكاترين هي ابنة لورنزو دي مديسي حاكم فلورنسا . فقدت والديها وهي صغيرة فأرسلت الى أحد الاديرة لتتلقى العلوم هناك . ثم تزوجت من دوق أورليانس الذي صار ملكاً لفرنسا باسم

هنري الثاني ، وقد تم هذا الزواج في عام ١٥٣٣ وهي يومئذ في الرابعة عشرة. ولم يظهر لها أثر في ميدان السياسة في عهد فرنسيس الاول ملك فرنسا . ولم يعلق أحد أية أهمية على سكوت هذه الايطالية الجريئة .

ولم يكن زوجها ليرث الملك لولا تصرفات القدر التي قضت على أخيه قبل أن يموت فرنسيس الملك نفسه . فلما قضى الملك نحبه في عام ١٥٤٧ توّج زوجها ملكاً على فرنسا باسم هنري الثاني .

وقد عاشت كاترين في مدة حكم زوجها عيشة منعزلة، لم يكن لها أي نفوذ على الملك ، لانه كان قد وقع في شراك ديانا دي بواتيه، وكانت هذه الغانية على شيء كثير من بعد النظر وحدة الذكاء ، فغدت ملكة فرنسا الحقيقية .

ولم تظهر كاترين شيئاً من الامتعاض بالنسبة الى المرأة التي اغتصبت محلها ، ولكنها كانت تنتظر دورها وتترقب الحوادث بهدوء ، حتى انها توددت لديانا دي بواتيه وصادقتها ! ..

وكان زوجها قاسياً ظالماً ، وقد عمد في أول احتفال اقامه في باريس بعد تتويجه الى احراق ستة من الخوارج على مرأى من الجمهور، وأنشأ غرفة خاصة في البرلمان أسماها « الغرفة المضطرمة » وكان يجلس في نافذة فندق دي لاروش بوث في شارع سانت انطوان التي تطل على ساحة التنفيذ ويراقب منها تلوي الخوارج وهم يحرقون . ولكن كل هذه المظالم لا تقاس بمظالم كاترين دي مديسي !

وأول دور سياسي لعبته كاترين دي مديسي عندما ذهب

زوجها الى كومبين ليثير حماسة الجيوش ، وكانت الانباء قد وردت الى باريس بسقوط سانت كوينتين في الحرب التي كانت قائمة بين ملك فرنسا وبين فيليب الثاني ملك أسبانيا ، اذ فر كثير من المدينة في حالة ذعر لاعتقادهم بان الاعداء قد تقدموا . فقد ذهبت كاترين حينذاك الى البرلمان برفقة الكرادلة والامراء والاميرات ، ووجهت الى أعضائه نداء مؤثراً ، صورت فيه الحاجة الملحة لمساعدة الجنود ، فأمر لها البرلمان بمائة الف كرون لهذا الغرض .

ومنذ ذلك اليوم تغير مركز كاترين ، فقد قدر الملك عند عودته حكمتها ، وأظهر لأول مرة نحوها شيئاً من الاهتمام والعناية .

وبعد ان مات هنري الثاني تولى العرش بعده الامير الفتى باسم فرنسيس الثاني ، ولم يطل عهد حكمه اذ مات في أقل من عام ، وجاء بعده أخوه شارل وتوج ملكاً باسم شارل التاسع . ولم يكن لكاترين أي نفوذ على فرنسيس الثاني لانصرافه عنها إلى امرأته ، أما خلفه شارل الذي كان في العاشرة من عمره فقد كان لها عليه النفوذ كله ، واستطاعت في عهده ان تقبض على زمام الحكومة في يدها فتكشفت حينئذ أخلاقها الحقيقية .

وكانت أوروبا في أواخر القرن السادس عشر غارقة في النزاع القائم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وكان عدد البروتستانت الهوغونوت كبيراً في فرنسا ، وكان زعيمهم برنس دي كوندية .

ولم يكن لكاترين مذهب ديني تدافع عنه ، بل كان دينها المطامع الاشعبية ، فأخذت تناصر الكاثوليك لأنهم كانوا يكوّنون الاغلبية .

وابتدأت أولى المعارك الدينية في عهد شارل التاسع في عام ١٥٦٢ ، وقتل فيها أحد شباب البروتستانت زعيم الكاثوليك .

وفي عام ١٥٦٨ تسلمت كاترين قيادة جيش الكاثوليك ، فتصادم الجيشان وانتهى الامر بهزيمة البروتستانت وذبح زعيمهم برنس دي كونديه . فألهبت ملكة نافار جيش البروتستانت بخطاب مؤثر ، وبذلت العطايا بين قواده ، حتى أثارت فيه روح الحمية .

ولما رأت كاترين ما فعلته ملكة نافار ، حذت حذوها وخطبت في الجيش ووزعت الهدايا ، ولكن الجيش كان ساخطاً عليها ، ولا يدين بطاعتها إلا خوفاً منها .

ولما التقى الجيشان المتخاصمان من جديد ، هُزم البروتستانت مرة أخرى ، وجرح قائد جيوش الاصلاح جرحاً خطيراً نقل على أثره من ميدان القتال الى داره . وكانت دهشة الكاثوليك شديدة عند ما رأوه بعد أسبوع يحارب ضدهم . ومدت ملكة نافار الجيش بجيش ثالث فابتدأت كفة البروتستانت ترجح . فطلبت كاترين الصلح ، وكان هذا أول فصل من مأساة سانت بارثولوميو الدامية .

وأخذت كاترين دي مديسي بعد ذلك بتمثيل دورها الدموي الثاني ، وكان سلاحها في هذا الدور القتل والزواج . وقد توجهت

ينظرها إلى أمير نافار الفتى ودعته الى بلاطها وعرضت عليه يد ابنتها مرغريت ، وكانت آية في الجمال ، وذلك نتيجة تدبير لها سابق مع ابنها شارل . ونجحت في تنفيذ خطتها وأعلنت ان الامير صار ابناً لها . ولم تكن أمه مرتاحة لهذا الزواج ولكن الاعتبارات التي ذاعت جعلتها توافق عليه في النهاية، اذ قيل ان زواجاً كهذا سينهي الاعتداءات على البروتستانت كما يحفظ فرنسا من سفك الدماء !

ولم يكن هذا الزواج إلا ستاراً لما يدبر وراءه من اهلاك البروتستانت بالرغم من تصريح شارل :

« أنا أزوج أختي ليس لأمير نافار فقط ، ولكن لأي واحد من جماعة البروتستانت ، وان هذا الزواج سيكون أقوى عامل لحصول الصلح بين رعاياي ودليلاً أكيداً على حسن طويتي نحو البروتستانت . »

وفي الوقت نفسه أخذت كاترين وابنها يغريان زعماء البروتستانت على القدوم الى باريس ضيوفاً في حفلة الزواج . واستقبل شارل ملكة نافار بمظاهر الود والترحاب، وكان يدعوها خالتي العظيمة والمحبوبة . ويقال ان الحوار الآتي دار بينه وبين أمه :

قال شارل ضاحكاً : « أماه أترينني قد أجدت تمثيل دوري ! »

فأجابت : « حسناً ولكن ما قيمته إذا لم يستمر . »

فقال : « اسمحي لي ان استمر وسترينني أتصيدهم . »

وقد صدق وتصيدهم ، اذ لم تكد ملكة نافار تدخل الى

المكان المعد لها في ضيافة كاترين حتى أصيبت بحمى شديدة استمرت تسعة أيام ثم ماتت على الاثر !

ولم يكن ابنها قد وصل بعد إلى باريس ، فأظهرت كاترين شيئاً كثيراً من مظاهر الحزن ، وكم صاح ابنها شارل وندب وفاة الملكة . ورغم هذه المظاهر الكاذبة ، فقد شاع في كل أوروبا ان كاترين هي التي سممت ضيفتها .

وتأخرت حفلة الزفاف قليلاً ثم أخذت الاستعدادات لانجازها، وجاء كبار البروتستانت والكاثوليك من أنحاء أوروبا لشهودها . وتم الزواج ولكن فصول الرواية لم تتم . فقد أصيب الاميرال كوليني برصاصة من نافذة وفر القاتل ، وأظهرت الملكة كالعادة مقتها لهذه الاعمال . وبينا ملكة نافار (ابنة كاترين) تؤكد للاميرال مقت أمها وأخيها لهذه الاعمال الطائشة كان الاثنان يتباحثان في جلسة سرية بشأن هنري زوجها متسائلين : هل يقتلانه أو يبقيان على حياته . ثم قررا سجنه حتى يضطر الى طرح عقيدته البروتستانتية !

وصدرت الاوامر السرية للكاثوليك في أنحاء فرنسا بأن يلبسوا صليباً أبيض على القبعة ، وأن يضعوا على أذرعهم رقعة قماش بيضاء ، حتى يستطاع تمييزهم في الليل ، وانه عندما يدق الجرس في الساعة الثانية بعد نصف الليل من برج دار العدالة يكون ذلك بمثابة الاشارة المتفق عليها فيقومون في الحال بذبح البروتستانت في جميع أنحاء فرنسا ولا يبقون حتى على النساء والاطفال !..

وفي الوقت الذي كانت كاترين تدبر فيه هذه المؤامرة ، قامت بتوزيـع العطايا والهدايا بين أشراف البروتستانت وقوادهم ، كما دعاهم شارل في قصر اللوفر قبل وقوع المذبحة بليلة الى حفلة شائقة.

وكان هنري يشك في نيات كاترين وشارل . وكانت امرأته لا تدري ما يدبر في الخفاء ، حتى ان أختها الصغيرة قالت لأمهـا انها تخشى ان تتعرض اختها لـسوء فيما لو افتضح الامر . ولكن كاترين كانت تفضل انّ تضحي بابنتهـا ولا تخفق خطتهـا ويخطىء تدبيرها .

ولما اقتربت ساعة تنفيذ المؤامرة ، تردد شارل فقالت له أمه :

« أجبان أنت ؟ »

فقال : « حسناً فلنبدأ »

ووقعت مذبحة سانت بارثولوميو الشهيرة في الموعد المضروب في ٢٤ آب (أغـسطس) من عـام ١٥٧٢ وهو يوم عيد القديس بارثولوميو ولذلك سميت باسمه .

وطبق الشوارع صدى كلمة « اقتل : اقتل ! » وأزعج ملكة نافار صوت عند بابها ينادي « نافار .. نافار » فحسبته زوجها ، فأمرت الخدم أن يفتحوا له الباب فاذا هو بروتستانتي يلوذ بهـا وقـد خر راكعاً عند قدمها والجند الكاثوليك من ورائه . فتوسطت له عندهم فتركوه .

ويعجز القلم عن وصف هول هـذه الليلة ، فقد كان يلقى بالجثث من النوافذ حتى تكدست بهـا الطرق . وجرت الدماء أنهاراً ، وكان يلعب بالرؤوس الآدمية في الطرقات كالاكر . وقد

استمرت هذه المذبحة أسبوعاً وقدرت ضحايا البروتستانت بمائة ألف نسمة . وقد فزع البروتستانت في كل أوربا وعلت صيحاتهم ، ولم يكن لمذبحة سانت بارثولوميو مثيل في التاريخ . وفي صباح يوم المذبحة دخل بعض الجند المدججين الى غرفة ملك نافار وحملوه الى حضرة ملك فرنسا ، فأمره أن يحقن دمـــه بترك العقيدة البروتستانتية وأعطاه ثلاثة أيام مهلة ليفكر في الامر ، وقد انتهت بتسليمه بما أراده شارل .

وبعد عامين من هذه المذبحة مات شارل . ويقال انه لم تمر عليه ساعة لم تكن تزعجه فيها الاحلام . وتقول خادمته إن وخز الضمير هو الذي قتله . وسواء صح ذلك أو لم يصح ، فقد ثبت أن أمـــه لم تتأثر قط ، ولم يؤنبها ضميرها ساعة واحدة ، وقد ماتت واسمها مبغوض من الكاثوليك والبروتستانت على السواء !.

ماري ستيوارت

« ١٥٤٢ - ١٥٨٧ »



ولدت ماري ستيورات ملكة اسكوتلاندة المنكودة الحظ في ٧ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٥٤٢ في قصر لنلثجو وهي حفيدة هنري السابع ملك انكلترا .

مات أبوها جيمس الخامس بعد مولدها ببضعة أيام ، وتوجت ملكة وهي ابنة تسعة أشهر . وبينا كانت المظاهر الملكية تجري من حولها ، فمن تاج يعقد على جبينها ، الى صولجان وسيف يتناسبان مع يديها الصغيرتين ، وبينا كبار الدولة يركعون لها احتراماً ، وأمراء بيت الملك يعدون الفوز بقبلة من خدها شرفاً كبيراً ، كانت هذه الطفلة تبكي خائفة مما حولها .. مسكينة هذه الملكة الطفلة، فقد بدأت الحكم بالدموع وانتهت بخشبة الاعدام!

وابتدأت أعباء السياسة ترهقها وهي في الخامسة من عمرها ، فخطبها ولي عهد ملك فرنسا الذي توّج فيما بعد ملكاً باسمه فرنسيس الثاني . ولما صارت في السادسة من عمرها أرسلت الى فرنسا لتتعلم هناك ، وقد اشتهرت منذ ذلك الحين بجمالها وذكائها. وصحبها في السفر أربع بنات صغار من الطبقة الرفيعة كانت أسماؤهن ماري فعرفن «بماريات الملكة» وقد اعتبرت هذه البادرة

تقليداً مستمراً بحيث اذا تزوجت أحداهن جيء بماري أخرى تحل محلها .

وقد أدهشت ماري السفراء الاجانب والبلاط في فرنسا عندما ألقت أمام الملك خطبة باللاتينية من وضعها ، وكانت لا تزال في الثانية عشرة من عمرها .

ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت من ولي العهد فرنسيس الذي كان وقتئذ في الخامسة عشرة ، وكانت حفلة الزفاف آية في العظمة والابهة . وعقب تلك الحفلة حفلات ومآدب . ولكن الحوادث أخذت تمر سراعاً فعقبت الافراح مآتم !

وعلى اثر وفاة ملك فرنسا ، توج زوج ماري ملكاً باسم فرنسيس الثاني ، ولكنه قضى نحبه قبل ان يتم عاماً على العرش ، وترملت من بعده الملكة الاسكوتلاندية الجميلة ، وكانت أمينة مخلصة لزوجها متفانية في حبه ، حتى ان أخا الملك كان اذا وقع نظره على صورة لماري يناجي أخاه قائلا :

« آه يا فرنسيس ! ما اسعدك أخاً ! فمع أن حياتك وحكمك كانا قصيرين ، الا انك كنت تحسد عليهما ، لأنك كنت تستحوذ على ذلك الملاك وحبه » .

وعادت ماري بعد وفاة زوجها الى بلادها ، ومنذ ذلك اليوم بدأ اضطهاد اليزابت لها . فقد أرسلت ماري ترجو ملكة انكلترا أن تسمح لها بالمرور في أملاك ابن عمها ، وهي في طريقها الى بلادها ، فأبت عليها اليزابت هذا الرجاء ورفضته بشدة .

ولما بلغت ماري اسكوتلاندة وتسلمت السلطان هناك حاصرها

جيش من المحبين ، فطلب يدها ملك السويد وفيليب الثاني ملك أسبانيا والارشيدوق شارل ابن امبراطور ألمانيا . وكان بعض هؤلاء من محبي ملكة انكلترا ، فعدت اليزابيت هذا اهانة لها ، وأوقعت وزره على ملكة اسكوتلاندة التعسة ، وابتدأت تدس لها الدسائس ، وادعت انه لا يحق لماري أن تتزوج ممن سبق أن رفضته ، فعزمت ماري على معالجة المسألة بنفسها وبادرت الى الزواج من ابن عمها دارنلي لانها كانت تحبه .

ولكن دارنلي كان يخفي وراء جمال وجهه خسة ولؤماً ، وليس في وسعنا أن نحصي المصائب العديدة التي نزلت بها بسبب ضعف زوجها ودسائس أبيه مع أشراف اسكوتلاندة الذين كانوا يرغبون في هلاكها لانها كاثوليكية . ولم يكن ذلك عن غيرة دينية منهم ، ولكنهم كانوا يريدون أن يجذبوا اليهم الجمهور ويكرهوها على النزول عن العرش ، ويولوا ابنها ملكاً ، وبذلك يقبضون على الحكم .

ولم يكن سلوك ماري بعد عودتها الى اسكوتلاندة بعيداً عن مظنة الريب ، اذ لم تكن سعيدة في حياتها الخاصة ، كما كان أشراف البروتستانت ينظرون الى زوجها بعين الحذر .

وبازدياد حذرها كل يوم من زوجها أصبحت لا تثق به ، فسارت خطوة أخرى غير موفقة اذ اختارت مستشاراً مالياً لها اسمه دافيد ريزيو وكان ايطالياً كاثوليكياً . فأثار هذا حقد دارنلي فتآمر عليها مع الحزب البروتستانتي – عدوه السابق . وفي يوم من أيام شهر اذار (مارس) عام ١٥٦٦ هاجموا غرفة طعام ماري

وجروا ريزيو من هناك جراً وقتلوه . فأخفت الملكة جزعها وساعدت زوجها على الفرار من وجه أعدائه ، وبعد شهور قلائل ولدت ابنها الذي صار فيما بعد جيمس السادس اوف اسكتلاندة وجيمس الاول اوف انكلترا .

وعاش هذان الزوجان المتنافران معاً بقية ذلك العام ، ثم مرض دارنلي فنقلته ماري الى ادنبره وأسكنته بيتاً صغيراً هناك ، ولم يمض وقت طويل حتى سقط عليه البيت نتيجة انفجار فقتله ، فثارت الشبهة حول الملكة ، وأكد خصومها انها وجدت محباً جديداً في شخص ارل اوف بوثول .

وكان ارل متهماً بالقتل فبرىء ، ثم طلق زوجه وهي عروس عام ، وبعد ثلاثة أشهر من وفاة زوج الملكة ماري تزوج منها ، فأثار عليها ذلك جميع الاشراف من بروتستانت وكاثوليك ، فأرادت أن تهيء لمواجهتهم جيشاً ، ولكن هذا الجيش تداعى قبل الاشتباك مع خصومها ، فاضطرت الى التنازل عن العرش في عام ١٥٦٧ من أجل طفلها .

ويلصق بهـا خصومها ثلاث تهم خطيرة : فيتهمونها بالقتل والاباحية والدسائس السياسية ، وهذه أشنع الجرائم التي يمكن ان تلصق بامرأة . وقد حاول بعض المؤرخين أن ينتحلوا لها المعاذير ولكنهم لم يفلحوا . وقد تقوّت البروتستانتية بسقوطها لانها كانت كاثوليكية متعصبة .

وسجنها بوثول في احدى القلاع الحصينة ، فانقذتها ومهدت لها سبيل الفرار جماعة ثائرة . وكانت خطة هـذه الجماعة ان يستولي

افرادها على الحكم بالاستيلاء على الملك الطفل .

وقد انتقل هؤلاء الطامعون الى انكلترا ، وحاكوا مؤامرتهم مع الملكة اليزابت . ورأت ماري أن أنصارها قد تفرقوا من حولها وخانها حزبها ، فتطلعت في الافق فلم تجد الا اليزابت التي تظاهرت بالعطف عليها . واليزابت امرأة وابنة عمها وملكة فلماذا لا تنقذها؟ وهكذا لجأت اليها وأسلمت نفسها لعدوتها اللدودة !..

والواقع انها انتقلت من سجن الى سجن ، وصار يضيق عليها وينقص في احترامها يوماً بعد يوم، وطال سجنها تسعة عشر عاماً. وأخيراً قدمت للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى. ويقال انه لم يكن هناك محامون عنها ولا مستندات ضدها . ولما طلبت ماري أن تقول كلمتها أمام البرلمان،وان يسمح لها بأن ترى الملكة في سجنها أبوا ذلك عليها ، وصدر الحكم باعدامها .

وحاول هنري الثالث ملك فرنسا في ذلك الوقت ، ان يوقظ شيئاً من الاحساس في قلب ابنها الفتى جيمس السادس اوف اسكوتلاندة بالنسبة لأمه ولكنه اخفق. غير ان بعض الكتاب يعتقدون بان جيمس السادس قد بذل بالفعل مجهوداً في هذا السبيل،ولكنه كان ضعيف الارادة والنفوذ امام جبروت اليزابت ووزرائها .

ولما تلي الحكم على ملكة اسكوتلاندة التعسة ، رسمت اشارة الصليب في هدوء وقالت :

« أما الموت فاني أرحب به ، ولكني لم أكن أتوقع أن تدبر أختي اليزابت هذا الامر ، بعد سجني طوال عشرين عاماً » .

ثم وضعت يدها على كتاب بجانبها ، وأقسمت انها لم تفكر قط بقتل اليزابت ولم تحاول ذلك ابداً .

فكان جواب ارل اوف كنت :

« هذا انجيل بابوي فيمينك لا قيمة لها ! .. »

فأجابت الملكة في عظمة :

« هذا انجيل الكاثوليك ، وبما اني أعتقد انه الحق فيميني صادقة يرتكن عليها » .

ويقول بعض الكتاب ان اليزابت نفسها لم توقع على ورقة اعدام ماري ، ولكن امضاءها قد زوّره توماس هاريصن سكرتير السير فرنسيس والنغهام . فقد جاء في مذكرات هاريصن بعد عشرين سنة من مقتل ماري ، أن سيده قد استخدمه في تزوير امضاء الملكة على ورقة اعدام ملكة اسكوتلاندة اذ لم يقدر أحد من الوزراء على حمل اليزابت على توقيعها . واضاف انه قد اقدم على ذلك بموافقة أربعة من كبار وزراء الدولة المسؤولين .

ولكن هذا القول مشكوك فيه لانه لم يثبت ان اليزابت غضبت على وزيرها من جراء ذلك . وقد كانت تتمنى طول عمرها موت ماري ، فلا معنى لاختلاق أسباب التبرئة بحياكة مسألة التزوير ، مما لا يكاد يجوز على قارئ التاريخ المدقق .

وفي الساعة السادسة من صباح ٨ شباط (فبراير) سنة ١٥٧٨ قالت ماري للذين حولها انه قد بقي لها في حياتها ساعتان ، وطلبت اليهم أن يساعدوها على لبس ثياب الاعياد . ولما ترددوا صرخت فيهم :

« أنا قريبة ملكتكم ، وفي عروقي يجري الدم الملكي ، وكنت زوج ملك فرنسا وملكة اسكوتلاندة » .

فأخجلهم قولها ولم يردوا طلبها الاخير .

وقالت وهي على خشبة الاعدام لخادمها ملفيل :

« لا تبك من أجلي يا ملفيل ، بل افرح لانك ترى نهاية آلامي الطويلة. واعلم ان هذه الحياة ليست الا غروراً فهي ملأى بالاحزان . أنا كاثوليكية وأنت بروتستانتي ، ولكن بما انه لا يوجد الا مسيح واحد ، فأنا أسألك باسمه أن تشهد بأني أموت ثابتة على ديني أمينة لاسكوتلاندة مخلصة لفرنسا . واذكرني عند ابني العزيز ، واضرب له مثَلي ، وقل له اذا شاء المعونة فليطلبها من الله ولا يطلبها من أي انسان » .

ولم تضعف ماري عند تنفيذ الحكم عليها ولا ترددت ولا بكت ولكنها كانت تتمتم :

« أكِلُ روحي إليك يا مولاي ! »

وقد أخطأ الجلاد في ضربته الاولى فسبب جرحاً عميقاً في الجمجمة ، ولكن الملكة لم تتأوه ولا صرخت من الألم ، وان تكن آثار العذاب قد بدت على تقاطيع وجهها ..

وأصاب « الجزار » بغيته بعد الضربة الثالثة ، وبقيت الرأس معلقة وحدها فنادى في الناس :

« هكذا يموت كل خصوم الملكة اليزابيت ! »

الملكة اليزابيث

"١٥٣٣ - ١٦٠٣"



من العصور المهمة في التاريخ الانكليزي عصر الملكة اليزابيت (اليصابات) . وهو يُعرف « بالعهد الاليزابيتي » ، فحول هـذه المرأة تجمع عدة أسماء مشهورة وحوادث كثيرة كما حدث في العهد الفكتوري .

واليزابيت تيودور هي ابنـة هنري الثامن ، ولدت في عـام ١٥٣٣ ولقبت في يوم مولدها باميرة انكلترا ، وأوصى ابوهـا الملك بعد ذلك اليوم بعدم وراثتها العرش ، معتبراً إياها غير شرعية كاختها ماري من كاترين أوف اراغون .

وأحبت اليزابيت اللورد اميرال سيمور ، وصرحت بحبهـا هذا ، فعارضها فيه البلاط ووضعها في شبه سجن .

ولما اعتلت اختها ماري العرش ووقعت ثورة « ارياط » ، قيل ان الملكة حجزت الأميرة اليزابيت وراقبت رسائلهـا ، ولقيت صعوبة هائلة في الاتصال بالملكة . ثم جاءتها رسالة من الملكة تقول لها فيها انها تطلق سراحها اذا قبلت دوق سافوي زوجاً ، ولكن كبرياء اليزابيت أبت عليها قبول هذا الزواج القسري ، ورفضت أن تشتري حريتها بمثل هذا الثمن ، وفضلت السجن عليه . لكن

زوج ماري سعى لدى زوجته الملكة فاطلقت سراح اختها ودعتها الى حفلة شائقة في القصر كان الدوق سافوي أحد المدعوين فيها .

ولم يطل عمر ماري ، وبعد وفاتها أحب زوجها شقيقتها اليزابيت ، ولكنها أعارته اذنا صماء ، فانقلب عليها وصار من أشد اعدائها .

ولما صارت اليزابيت ملكة على انكلترا رفضت باباء أيدي الدوقات والارلات والملوك ، وعاملت ملك السويد الذي كان مفتوناً بها معاملة سيئة ، فقد أرسل اليها هدية عظيمة تتألف من ١٨ حصاناً ومركبين محملين باغن ما تنتجه بلاده ، فقبلت الهدية وكتبت الى ذلك المفتون : « إنها تأمل وهي آسفة ، أن يوفر على نفسه مشاق رحلة غير منتجة » وكان أغرب ما في هذا الادب الملكي ، أن تتقبل العطية وترفض المعطي ! ..

وطلب اليها البرلمان الانكليزي أن تتزوج ، ولكنها اعتذرت وخذلت كل من تقدم من الملوك يطلب يدها . وكان الرجل الوحيد الذي رغبت في الزواج منه هو ددلي الذي جعلته فيما بعد ارل اوف ليستر ولو لم يكن متزوجاً لتزوجت منه في الحال . وحدث أن ماتت زوجه فجأة ، فشاع أنه قتلها ليتزوج من الملكة وفزعت النفوس منه وأنكرت جريمته ، فخافت الملكة على كرامتها ولم تستطع الزواج منه . ولكن ظل برغم الدسائس التي احيطت به محافظاً على مكانته في القصر ، مقربا من الملكة حتى مات ، مع ما اشتهر عنه من المؤمرات الدنيئة والادعاءات الكاذبة !

وقد كتب روجراشام استاذ اليزابيت عن محصولها في الادب والعلم يقول :

« لقد اتمت اللادي اليزابيت سن السادسة عشرة ، فلم يشاهد قط في مثل هذا السن المبكر حياء مقرون بالكرامة كما شوهد فيهـــا . كانت مغرمة بالدين الصحيح وبأرقى انواع الادب . وتكوين عقلها خال من الضعف النسوي . وهي امرأة موهوبة فليس أسرع منها في الفهم ولا أقوى منها في الذاكرة ، تتكلم الايطالية والفرنسية مثلما تتكلم الانكليزية واللاتينية ، كما كانت تتكلم معي في الغالب باليونانية. وخطها جميل سواء أكان بالحروف اللاتينية أم اليونانية . وقد قرأت معي كل شيشرون وجانبـــاً كبيراً من ليفي ،ومن المؤكد أن معرفتها اللاتينية ترجع الى هذين المؤلفين » .

تولت اليزابيت الحكم وهي في الخامسة والعشرين من عمرها ، فارسلت بلاغا عاديا بارتقائها العرش الى بابا روما ، فارعد البابا في جوابه لتجرئها على قبول التاج بدون إذنه. وكان جواب اليزابيت أن اطلقت على نفسها لقب « رأس الكنيسة » واختارت لها شعاراً على النقود « اصطفيت الله عوني » . ولما دخلت الى القصر الملكي كملكة قالت :

« لقد سقط اناس في هذه البلاد من صف الامراء وسجنوا في هذا القصر ، اما انا فقد انتقلت من سجينة في هذا القصرَ الى ملكة على هذه البلاد . لذا وجب عليّ أن أقر لله بالشكر وأن اكون رحيمة بالناس ! »

وكان الشعب عندما ارتقت العرش منقسما في افكاره الدينية تبعاً للانقلابات اللاهوتية التي وقعت في الاثنتي عشرة سنة الأخيرة. فأمرت بأن لا يعظ احد قبل أن يأخذ ترخيصاً . وكانت تكره الوعظ والوعاظ وتقول: إن اثنين أو ثلاثة يكفون كل المملكة».

وكان عهد اليزابيت عهداً مخصباً في الحوادث العظام ونبغاء الرجال . كان عصر الشجاعة والعبقرية ، عصر عجائب الفكر والانقلابات الغريبة ، والمشروعات الجريئة ، والمنازعات الدينية والسياسية. وفي هذا العصر نبغ شكسبير أول الشعراء، وباكون الفيلسوف العظيم ، وهوكر اللاهوتي، ودريك البحار ، وجريشام التاجر الكبير ، وسبنسر ورالاي واسكس وكلهم من نجوم التاريخ .

وفي هذا العصر نفسه برز في البلاد الاخرى أمثال لوثر المصلح ، وسلي السياسي ، وميشيل انجلو نابغة التصوير ، وبلاسترينا مبدع الموسيقى الايطالية ، فكان بحق عصراً عظيماً ، وكانت اليزابيت عظيمة بعصرها . وقد اشتهر عهد اليزابيت بازدهار الاداب .

وتقدمت الملاحة والصناعة والتجارة في غضون حكمها ، وطاف المكتشفون الانكليز حول الارض . وهي أول من أنشأ العلاقات التجارية مع روسيا وتركيا ، وأول من أرسل سفراء اليها . وجاءت المرايا واكواب فنيسيا الى انكلترا ، وكذلك الخزف والتيل، ولكن مما يستملح ملاحظته، انه مع كل هذا التقدم لم تكن «الشوك» معروفة هناك بعد ، فكانت الملكة وحاشيتها الانيقة لا يزلن يأكلن بأيديهن !

وقدم اليها أول جورب من الحرير صنع في انكلترا، وكان ذلك في عام ١٥٦٠ ، فسرت به سروراً بالغاً ولم تعد تستعمل غير الجوارب الحريرية .

وشجعت اليزابيت فن الرسم ، لكثرة تصوير الرسامين لها ، وتفننهم في ذلك ، حتى كثرت صورها في السوق وظهرت بينها صور عاطلة من روح الفن ، فاضطرت أمام ذلك الى اصدار قرار بعدم تصويرها حتى يُصنع لها مثال من مصور ماهر يحتذى به .. غير ان مصوريها لم يكن في طاقتهم ان يداهنوها كما داهنها شعراؤها !..

وقد أزعجها منظر وجهها في المرآة عندما تقدمت في السن ، فلم تعد تستعمل المرآة في أواخر أيامها ، ومع ذلك فان المتملقين من حولها كانوا مضطرين الى مناداتها بربة الجمال . والواقع انها كانت بالفعل وهي في الخامسة والستين تحاول ان تمثل دور فينوس !

وكانت حفلاتها اليومية تمتاز « بالخدمة الشرقية » ، فكانوا يخدمون على المائدة ركماً ، وحتى وزراؤها كانوا يخاطبونها راكعين . وقد أعفي من هذا الرق اللورد بورلاي لما صيره السن والمرض عاجزاً ، ولم تستثن من ذلك غيره ..

وكان من المقربين منها حبيباها ليستر واسكس ، وكان الاول خائناً لا وزن له ، أما الآخر فكان أكبر من أن يتحمل صلفاً . ولذلك كانت تبدو عليه امارات الثورة عندما يجثو عند قدميها . وقد لطمته يوماً على أذنه فقال في غضب :

«ما كنت لأقبل هذا من يد الملك أبيها، ولا أقبله من يـــد امرأة أنا مدين لجلالتهـا بواجب الأرل ولكني لـن أخدمهـا قط كعبد .»

ولكنها كانت امرأة لا تعارَض ، فقد قضي على اسكس بعد حين ، ولم يبد ان موته قد ملك على الملكة مشاعرها . وكانت قد أعطته خاتماً وأمرته ان يبعث به اليها إذا وقع في ضيق ، فلما حكم عليه بالاعدام بعث به اليها ، ولكن الخاتم مر بيد إحـدى الوصيفات التي كان زوجها خصماً لاسكس ، فلم يصل الى الملكة ونفذ في أسكس الحكم . وقد اعترفت الوصيفة بذلك في ساعـة وفاتها ، فكان حزن الملكة وأسفها شديدين !

وفي أيامها أتم السير فرنسيس دريك رحلتـه حول الارض ، وقام السير والتر رالاي برحلاته المهمة . وهو الذي أدخل الدخان الى انكلترا . وقد أجرى مع الملكة رهاناً على ان في استطاعته ان يعرف وزن الدخان الذي يخرج عند التدخـين . وكان ان راهنته فوزن التبـغ قبل التدخين ووزن ترابه بعد التدخين، وقال لها ان الفرق بين الوزنين هو مقدار الدخان ، فدفعت له الرهان وقالت له انها تعرف كثيراً من الناس يحولون ذهبهم الى دخان ، أما هو فأول من عرفته يحول الدخان الى ذهب !

وقد رسم كاتب كبير الفكرتين المتناقضتين عن خلق اليزابيت فقال :

« كنا نعتقد منـــذ الصغر بان حكمها سيكون ممتازاً في التاريخ . وقد سمعنا في الوقت الاخير عن شهرة العهد الاليزابيتي

في الآداب ، وعن حكمة اليزابيت وشجاعتها وتدبيرها ، وحبها للوطن ، وروحها القوي ، وقوانينها العجيبة ، وحكومتها اليقظة ، ونجاحها في الداخل والخارج ، وانتصاراتها في حروبها وتحالفاتها مع أعظم وأقوى أمراء زمانها ، ومركز انكلترا العظيم الذي جعلها معقلاً للاصلاح الديني ، وعظمتها كحامية للبروتستانت وموقفها العظيم في الدفاع عن الايمان الأهلي والاستقلال لما هزمت الارمادا الاسبانية في عام ١٥٨٨ .

« كل هذا معروف عند شباب الناس منذ ابتدأوا يدركون ، فقد ترك أثراً في طفولتنا لا يمحى .

« ولما كبرنا وعرفنا تفاصيل التاريخ ابتدأنا ندرك معاني أخرى في هذه الاسماء والاعمال العظيمة . فقد رأينا على عرش انكلترا امرأة صيرها طمعها وغيرتها وحسدها وحقدها وقسوتها محتقرة ذميمة . فاننا نجد انكلترا بلاد الحرية محكومة كاحدى الولايات التركية ، حكماً مطلقاً من قبل هذه الملكة العاتية ووزيرها الاكبر بورلاي . ونرى الدم البشري يجري على خشبة الاعدام كما يجري الماء ، والاضطهاد والتعذيب والموت ينزل بالناس باسم الدين ، ونرى رجالاً عظاماً أسماؤهم فخر هذه البلاد ، قد أهملوا الاهمال كله ، بينما يمرح بالسلطان محب لا وزن له .

« لقد قرأنا هذه الاشياء وتعلمناها فتملكتنا الدهشة ، ووجدنا التوفيق بين هذه المتناقضات البينة من الصعوبة بمكان ! » .

وجاء في كتاب «تاريخ الشعب الانكليزي» عن اخلاق اليزابيت :

« انها لم تكن تعرف شيئاً من الاحتياط النسوي او ضبط النفس

وكان جمال الشخص يكفي لنيل حبها، فقد كانت تداعب الشباب الجميل عند ما يركعون لتقبيل يدها، وكانت تغازل حبيبها لورد ليستر امام حاشيتها ! » .

وقال سائح الماني في معرض الكلام عنها، وكان قد زار انكلترا عام ١٥٩٩ أي قبل وفاتها باربع سنوات : « عدّ عند جسر لندن مالا يقل عن ٣٠٠ رأس انسان ممن حوكموا بتهمة الخيانة العظمة » وهذه الشهادة على قسوة اليزابيت يؤسف لها جد الاسف ! ..

واخيراً دنت ساعة خصمها الاكبر الذي لا تنفع معه دموعها ولا تضرعاتها ولا مكائدها، فألقى بتاج الملكة من على رأسها ورمى بصولجان الملك من يدها واطفأ سراج عينيها . ومثل هذا الخصم لا يرشى فترشيه، ولا يُتحدى فتتحداه، فصرخت وهي تتلوى تحت ثقله :

« اني أعطي مملكتي ثمناً لساعة واحدة احياها ! » .

ثم ثقلت وطأة الموت عليها فجالدته في ساعة يأس فجلدها، واستُدعي رجال الدين ليصلوا لها، ودوى بعد ذلك في القصر صوت المنادي يقول :

«ليحي جيمس الاول ملك انكلترا وارلندا واسكوتلاندة» .

فكأن القضاء الساخر أبى الا ان يرقى العرش من بعدها ابن الملكة الاسكتلندية التي كانت اليزابيت تخافها وتبغضها والتي قضت اليزابيت باعدامها !

ماري تيريزا

" ١٧١٧ - ١٧٨٠ "



ولدت ماري تيريزا في ١٣ ايار (مايو) عام ١٧١٧ في القصر الملكي بفينا ، وأبوها هو شارل السادس أمبراطور ألمانيا ، وأمها اليزابيت كرستينا اوف برتروك التي قيل انها كانت على خلق عظيم.

وقد فاقت ماري تيريزا والديها في جمال الجسم، وقوة الطبع، والكفاية المدهشة التي وضعتها في مقدمة الملكات . وربما كان لا يساويها في اقتران الفضيلة بالقوة بين شهيرات الملكات غير ايزبيلا دي كاستل . وقد تساويها كاترين الروسية في كفايتها ، إلا أن كاترين كانت امرأة ثائرة مجردة من الفضيلة ، حتى ان سوء سمعتها غطى على عظمتها .

كانت ماري تيريزا مثالا للملكة العاملة ، ذات رأس مفكر، وهمة عظيمة ، ولم يكن فيها موطن ضعف من الناحية العاطفية فلم تخطيء وتتعثر كغيرها من الملكات ، ولكن متانة خلقها صانتها من الزلل فبقيت في حياتها الخاصة والعامة مثلا أعلى للفضيلة.

وكانت ملكة محبة للعمل ، أو سلطة تنفيذية مجسمة ، وكان لديها من النشاط وبعد النظر والتيقظ الشيء الكثير . وأما الجلد وقوة الصبر على الشدائد ، وضبط النفس في عظائم الامور ،

فحدث عن ذلك ولا حرج .

وقد قال عنها فردريك الاكبر خصمها السياسي :

« اني وان كنت قد اعلنت الحرب عليها ، فاني لم أكن قط عدوها شخصياً ، بل كنت على الدوام أحترمها ، انها شرف لجنسها وفخر لعرشها ! »

ولم تكن ماري تريزا لتكتفي من الفضيلة بأن تتحلى بها وحدها ، بل فرضت الآداب على حاشيتها وفي ممتلكاتها ، فكانت خير قدوة في تقويم أخلاق الشعب .

وفي عام ١٧٣٦ تزوجت من فرنسيس دوق اوف لورين ، قد تمّ هذا الزواج بدافع المحبة لا بدافع سياسي ، لذلك كان اتحاداً سعيداً . وكان فرنسيس دون زوجه في العقل بكثير ، ولكن حبها له جعلها مخلصة له طول عشرتهما .

وقد مات شارل السادس والد ماري وهي في الرابعة والعشرين وخلف لها ألقاباً كثيرة ، فكانت بحكم الميراث ملكة المجر وبوهيميا ، وارشيدوقة النمسا ، وسلطانة على الاراضي الواطئة ، ودوقة ميلان وبارما وبلاسنشيا ، كما كانت بالنسبة لزوجها من فرنسيس ارشيدوقة توسكاني . والحق أن هذه الالقاب المتعددة كانت مبعث متاعب لها . فقد عمل والدها في حياته على أن يضمن لها بعد وفاته عرشاً لا نزاع فيه ، فأعلن أن ماري ابنته هي وريثة بيت النمسا ، وصدقت على هذا عدة دول أوروبية ، ولكن بعد أن توفي هب المطالبون بالعروش من كل ناحية .

انفصلت فرنسا من ذلك العهد الذي قطعته ، ولم تعترف بعد

ذلك لماري بألقابها. وأخذ ينازعها أمراء بافاريا ـ بمساعدة فرنسا ـ في النمسا والمجر وبوهيميا . وادعى ملك اسبانيا حقاً له في النمسا، وأخذ يستعد للاستيلاء على المقاطعات الايطالية . وادعى ملك سردينيا لنفسه الحق في ميلان . ولم يكتف ملك بروسيا بمثل هذه الادعاءات ، بل انقض بالفعل على فريسته واستولى على مقاطعة سيليزيا بعد ان جعلها جنوده خراباً يباباً .

كانت الاخطار والصعاب التي أحاطت بماري عند ارتقائها العرش ، تكفي لأن تضعف أكبر عزيمة وترهب أقوى عقل . ولم يكن الأمر مقتصراً على ما ذكرنا ، بل كانت فوق ذلك مهددة في داخل البلاد كما كانت بدون جيش ولا مالية ، وان شئت فقل وبدون وزارة أيضاً !

ولكن لم يكن هنالك أحد أكبر منها همة يوم ادلهمت الامور وتعاظمت الخطوب. ولم يكن يصلح لهذا الموقف العصيب سواها، لقد ادارت عينيها حولها فعرفت ان المجر متعلقة بها ، فتحولت اليها طلباً للمساعدة . وفي ١٣ حزيران (يونيو) عام ١٧٤١ توجت ملكة على المجر في بوسبورغ .

وكان لرجاحة عقلها وتأثير منطقها ، وحسن تصريفها للأمور، شأن يذكر في موقفها ، فقد ناشدت رجال الدولة الاخلاص للوطن وقالت انها كملكة وامرأة ووالدة وبلا معين فانها تكل نفسها وأطفالها الى ثقتهم وأمانتهم ، ورفعت ابنها يوسف بين يديها وقدمته الى النبلاء المجتمعين ، فجرد ألف محارب سيوفهم من اغمادها وهتفوا في حماسة :

« سنموت من أجل ملكتنا ماري تيريزا ».

ولم تشتهر ماري تيريزا بالشجاعة داخل حدودها فقط ، بل تعدتها الى انكلترا ، حتى إن موقفها بدون نصير أثار هناك حماسة شديدة فقرر البرلمان الانكليزي مساعدتها ، واكتتبت سيدات انكلترا ودوقات مارلبرا بمائة ألف جنيه لمؤازرتها ، فرفضت ماري هذه المساعدة الخاصة وقبلت فقط مساعدة الملك والبرلمان.

واشتدت الحماسة من أجلها في النمسا ، وانتظمت الجماعات لمساعدتها في كل مكان ، وأحكم تحصين فينا . ونظرت ألمانيا وبروسيا الى ذلك بعين العجب ، وأسقط في يد فردريك وطلب الصلح. وقد اضطرت الى الصلح لانها بينا كانت في مركز المدافع ضد بروسيا ، كان الفرنسيون والبافاريون يغيرون على بوهيميا . وبذلك هزمت الفرنسيين في بضعة أشهر ، ودخلت براغ ، وتوجت ملكة على بوهيميا في ايار (مايو) عام ١٧٤٣ .

وكذلك انتصرت ماري تيريزا في ايطاليا . وفي عام ١٧٤٤ عادت ففقدت بافاريا . ولكنها في الغام التالي استردت كلا من بوهيميا وبافاريا، وبموت شارل السابع حققت مطامعها بإجلاس زوجها امبراطوراً على عرش المانيا ، وكانت أول من هتف : « ليحيَ الامبراطور فرنسيس الاول » وكانت تلقب منذ ذلك الحين « الملكة الامبراطورة » .

وقد استعادت في صلح اكس لاشابل عام ١٧٤٨ جميع ممتلكاتها الموروثة ما عدا سيليسيا ، وبارما ، وبلاسنشيا ، وجوستالا .

وكانت الملكة الامبراطورة كاثوليكية حريصة ، فلم تسمح للبابا أن يملي أوامره على مملكتها ، فحققت بذلك الفصل بين السلطتين الدينية والروحية. وكانت على استعداد دائماً لأن تضحي براحتها من أجل مصلحة رعيتها ، وكانت تقول :

« إني لآخذ على نفسي الوقت الذي قضيته في نومي لأنه اختلاس من رعيتي . »

ولما هدأت الحال أخذت تقوم بالاصلاحات الداخلية، فأحيت الزراعة وشجعت التجارة والفنون ، وأنشأت الطرق وأصلحتها ، وأوجدت عدة صناعات كالملابس الصوفية والخزف والزجاج والحرير . وازدهرت العلوم بانشاء عدد من الكليات والجامعات . كما أقامت عدة مدارس للرسم والتصوير والعمارة ، هذا عدا المكتبات العامة المجانية التي أنشأتها في براغ واسنبرك .

ولم تكن لتكتفي بمعرفة القليل من شؤون الحكومة ، بل كانت تخصص عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة لأعمال الدولة . ومع هذه العناية الفائقة بشؤون الحكومة ، فقد كان يتوفر لها وقت كاف لاستقبال المقربين اليها وللرياضة وللعناية بأطفالها الستة عشر .

ومما يذكر لها بالثناء ان بابها كان مفتوحاً للأمير والصغير ، كما كانت مشهورة بالاحسان حتى دعيت « بأم الشعب » . وكانت في غضون الاربعين عاماً التي تولت فيها الحكم ، محبة للعدل كثيرة العطف على الرعية .

وفي عام ١٧٦٥ مات زوجها فرنسيس الاول ، فكان وقع

موته شديداً عليها ، وبقيت ترتدي عليه الحداد باستمرار وتختلف الى قـبره من وقت إلى آخر . وخاطت كفنها بيديها مقدمـاً ، ودفنت عند موتها في كفنها الذي عملته لنفسها .

وبعد وفاة فرنسيس توج ابنه الاكبر يوسف الثاني ، ولكن نفوذ ماري في الحكومة بقي النفوذ الاول .

ولم يشب اسمها شائبة طول مـدة حكمها ، إلا اشتراكها في تقسيم بولاندة ، ولكن الوثيقة السرية التي أبرمت في بطرسبورغ عام ١٧٧٢ قد نزهت اسمها عن كل ما علق به فقد جاء فيها : « إذا رفض البلاط النمساوي فكرة التجزئة فان بروسيا والروسيـا تتحدان ضد النمسا . »

ولما ثارت ثائرة أوروبا على هذا السلب العلني ، رد فردريك الاكبر بدهائه : « اما عني فاني أتوقع كل هذا الزئير ، ولكن ماذا عساهم يقولون عن قداسة ابنة عمي ؟ »

والحق ان ماري تيريزا قد تركت وراءها في التاريخ صفحة نقية ناصعة .

كاترين الثانية

" ١٧٢٩ - ١٧٩٦ "



في روسيا ، تلك البلاد التي تقسمتهـــا الاجواء ، وخالفت الطبيعة بين أراضيها فسحة الارجاء ، الك البلاد التي لم تكن حظوظ الناس فيها أقل تبايناً : فمن ثروات طائلة يمرح أصحابها بين الاسراف واللهو والخلاعة ، الى فقر مدقع لا يجـــد معه البؤساء ما يسد الرمق ، يستبد بها اباطرة لا يعرفون لغير أهوائهم معنى ، ولا يقف سلطانهم عند حد. في تلك البلاد كان الاستبداد يدفع الملوك والحكام الى الظلم ، وكان الارهاق يدفع المظلومين الى الاغتيال وقـــد تألفت له عصابات النهلستيين (العدميين) الشهيرة: الملوك يملأون بالمتذمرين سيبيريا والسجون، والفوضويون يزهقون أرواح من تصل اليهم أيديهم !

في هذه البلاد قام بطرس الكبير وأنشأ مدينته المشهورة بطرسبرغ «بتروغراد او لينينغراد كما تدعى اليوم» سنة ١٧٠٣ وجعلها عاصمة مملكته الواسعة . وأقام فيها تمثاله المعروف بضخامته يتطلع اليها وكأنـه يكرر قول نبوخذ نصر البابـلي : « أليست هـــذه بطرسبرغ التي أنشأتها بقوة سلطاني وشدتها لمجد جلالتي ! »

تولى الحكم من بعد بطرس الكبير خمس ملكات ، وكانت الأخيرة

أعظمهن شأناً: تولت الحكم بعد بطرس الأول زوجته كاترين الأولى سنتين ، ثم بطرس الثاني وكان صبياً في الرابعة عشرة فلم يحكم سوى شهرين حكما اسمياً ، ثم الامبراطورة حنة التي حكمت عشر سنوات كان الامر فيها لندمائها وانتهى سنة ١٧٤٠ بلا عمل يذكر ، ثم جاء الطفل إيفان ودعي الامبراطور ايفان الثالث فلم تمهله والدته حنة التي بعثت بالوصي بيران الى سيبيريا وتولت هي الحكم سنة كاملة .

وفي سنة ١٧٤١ قامت اليزابيت ابنة عم « حنة » بثورة على رأس الحرس الامبراطوري وانتزعت منها الحكم ونادت بنفسها الامبراطورة اليزابيت الأولى ، واستمر حكمها عشرين سنة ، وقد اعلنت انها لن تقتل وطنياً ، ولكنها كانت تبعث الى سيبيريا بمن تشاء في غير حساب !

وفي مدينة ستتين من أعمال بروسيا ولدت في يوم ٢ ايار (مايو) سنة ١٧٢٩ أوغستا فردريكا أميرة انهالت — زيربست برنبرغ التي استعاضت سنة ١٧٦٢ عن هذه الالقاب بكلمتي كاترين الثانية .

تزوجت هذه الأميرة في الثامنة عشرة من عمرها بابن أخ الامبراطورة اليزابيت وهو وان كان كبير الدوقات الا انه رجل لا خطر له. ولما ماتت الامبراطورة أصبح هذا الزوج الامبراطور بطرس الثالث ، وعاش إلى جانب زوجته عيشة ديموقليس الذي كان يأكل والسيف معلّق فوق رأسه !

لقد تعرضت حياة الامبراطور للاغتيال ثلاث مرات وكان

في كل مرة ينجو بأعجوبة . وكانت كاترين تدعي ألا علم لها بشيء منها وهي التي تحيك حبائلها ! ...

كان بطرس يقضي بضعة أيام في قصره الخلوي في «اورنيانبوم» ومنه ينتقل إلى قصره في « بترهوف » ، فكمن له المتآمرون في الطريق للقبض عليه ، ولكن جندياً ساذجاً سأل ضابطه متى نهاجم الامبراطور ، وقد حسبه في عداد المتآمرين، فجزع الضابط إذ لم يكن له علم بالمؤامرة وأبلغ رؤساءه .

أوقع اكتشاف المكيدة الرعب في نفوس المتآمرين وقرروا الاسراع في عملهم مخافة أن يبطش الامبراطور بهم . وكانت كاترين نائمة في قصر بترهوف حيث تلافي زوجها ، فدخل عليها جندي في الساعة الثانية صباحاً وأيقظها قائلاً :

« ليس للامبراطور مهلة انهضي واتبعيني ».

أسرعت الامبراطورة وخادمها إلى عربة كانت في انتظارها ، فانطلقت بأقصى سرعتها ، فما لبثت العربة ان انكسرت في الطريق بها، مما جعل كاترين تتابع رحلتها ماشية، ثم لقيت فلاحاً يسوق عربة ، فأسرع اليه الجندي وأجلس الامبراطورة في العربة وجرى بها إلى العاصمة .

كان الامبراطور المسكين نائماً في قصره في « أورنيانبوم » بينما كانت امرأته كاترين مسرعة إلى بطرسبرغ لتضع تاج الامبراطورية على رأسها . ووصلت إلى العاصمة في الساعة السابعة صباحاً وتقدمت إلى الجنود مؤكدة لهم أن زوجها القيصر أراد اغتيال حياتها هذه الليلة ، وانهم حماتها وملاذها ! ..

صدق الجميع هذه الفرية ، وأقسموا أغلظ الايمان أن يقدموا حياتهم دفاعاً عنها ، وهتف الاشراف بحياة الامبراطورة،وأجابهم الجند مؤمنين والضباط يشجعونهم .

وتقدم اليها فيلبوس قائد الفرسان يدعوها إلى الروية ، فلقيته كاترين بصلابتها المعروفة قائلة :

« لست في حاجة إلى نصحك ، قل فقط ماذا تنوي ؟ »

ذهل الرجل ولم يجب إلا بقوله :

« الطاعة لجلالتك ! . »

وسلمها المعسكرات ومخازن الذخائر ، فلم تمض ساعتان حتى كانت كاترين تجلس على العرش ، والجيش تحت أمرها ، والعاصمة تحت قدميها ..

كان بطرس الثالث في غفلة عن اغتصاب زوجته عرش الملك ، فما علم حتى أسرع إلى بترهوف وهناك أوقعت أنباء الثورة في نفسه خبالاً أضاع صوابه ..وانتهى به الامر ان كتب إلى كاترين خطاب تذلل يعترف فيه بخطئه،ويطلب اليها مشاركتها في الحكم. فكان جواب كاترين أن أرسلت اليه الكونت « بانين » يقنعه بأن يكتب إقراراً صريحاً بعدم صلاحيته للحكم ونزوله عن العرش مختاراً .

ولم يكد الكونت يحصل على هذا الاقرار من الامبراطور حتى اعتقله في قصر روبسكا . وتعليلاً لهذه الحوادث الغريبة ، أصدرت الامبراطورة في ٢٨ حزيران (يونيه) ١٧٦٢ بلاغاً لم تذكر فيه شيئاً عن الامبراطور التعس جاء فيه أن الاسباب التي

حملتها على الاضطلاع بالحكم هي حبها الشديد لسعادة الشعب وحرصها على المذهب الارثوذكسي الذي صار عرضة للضياع ، وختمته بقولها :

« ولهذه الاسباب اعتمدت على الله القدير وعدله السماوي ، واعتليت عرش روسيا الامبراطوري ، وتقبلت إيمان شعبي الامين » .

بهذه الثورة التي لم ترق فيها قطرة من الدماء ، اعتلت عرش القياصرة امرأة غريبة ليس في عروقها نقطة من الدماء الروسية .

وما كاد يستقر بها الحكم حتى تراءى لها شبح القيصر ، فلئن كان يعيش فيما يشبه السجن فان له أصحاباً ولا يزال يتمتع بتأييد حرس هولستين وقد ساء هؤلاء ما أصاب أمبراطورهم ، فلا بد لها اذن من التخلص منه . وأرسلت أورلوف وباراتنسكي للاجهاز عليه ، وقد ظفرا بذلك إذ خنقاه في مسكنه بفورطة ، فأراحا أنفسهما وأراحا الملكة !.. وبلغت أنباء موته الامبراطورة وهي تحضر جلسة مع رجال شوراها ، فلم ترغب في إذاعتها إذ لم تكن قد هيأت الاذهان لقبولها ، بل استمرت في جلستها تبدي المسرة والانشراح .

وبينما كانت تتناول الطعام في اليوم الثاني على مائدة عامة علن موت القيصر حسب الخطة التي رسمتها ، فقطبت جبينها وأرسلت دموعاً غزيرة واحتجبت بضعة أيام مدعية الحزن الشديد . ثم أصدرت بلاغاً قالت فيه :

« شاءت إرادة الإله القدير ان يتوفى الامبراطور بطرس

الثالث عن هذا العالم في نوبة مرض شديد كان يلازمه منذ زمن بعيد » .

وطلبت من الشعب ان يرى في ذلك عناية من الله خصها بها ، ولكن لم يكن في الشعب من بلغ بـه الغباء أن يصدق هـــذه الاكذوبة ، ولم يكن في الشعب من بلغت به الجرأة أن يكذبها ، وكان في هذا جواب كاف للامبراطورة !

لقد دلت كاترين على مهارتها بما أحدثت من اصلاحات ، إذ سنت أنظمة هامـــة ، وشجعت التجـارة ، وأنشأت المدارس والمستشفيات وكثيراً من المعسكرات والمصانع .

وادعت انها أسست مائتين وخمساً وأربعين مدينة ، وما هي في الحقيقة سوى قرى أطلقت عليهـــا اسم مدينة ، أو مدائن بدلت من أسمائها ، أو خرائب بقيت كما هي سوى انهـا وضعت لها أسماء .

وقامت سنة ١٧٨٧ برحلة في نهر دنيبر وكان برفقتها جوزيف الثاني لوضع أساس مدينة يطلق عليها اسمها : « كاترينسلوف » ووضعت الامبراطورة الحجر الاول ، ووضع جوزيف الثـاني الحجر الثاني . ولهذا كلمة مأثورة في هـــذا الظرف قالها تهكماً وأيدتها الايام :

« لقد قامت الامبراطورة وأنا اليـوم بعمل جليل ، وضعت هي الحجر الاول لمدينة عظيمة ، ووضعت أنا الحجر الاخير ! »

فقد وقف بناء المدينة عند هذا الحد ولم يعد أحد يفكر فيها .

ولم يكن لكاترين سوى هوى شديد يتملك نفسها وهـــو

الطمع ، وإذ كان الاصل في خلقها الانانية ، كان من نفسها واليها يرجع كل مطمعها . كانت وحشيـة الغريزة ، ماكرة ، قاسية في غلظة ، في أسفل دركات الفساد . ولكنها كانت تعرف كيف تحيط نفسها بسياج من الهيبة، ان لم يكن عن احترام وحب فمن رهبة ، بحيث كان فردريك الكبير ولويس الخامس عشر، وماريا تيريزه وجورج الثالث يعنون بأعمالها عناية خاصة .

لم تشتهر كاترين بشيء شهرتها بمجموعة قوانينها التي قال عنها فردريك بروسيا :

« إذا كان من الملكات من بلغن الشهرة بحق، مثل سميراميس بفتوحاتها واليزابيت انكلترا بفطنتها السياسية وماريا تيريزة بثباتها ومتانة خلقها ، فلكاترين وحدها يبقى لقب المرأة المشرعة . »

ومن يدري ما في هذا القول من تزلف ومن صدق ؟ على ان الفصل في ذلك ليس من الصعوبة في شيء متى علمنا مهانة أخلاق كاترين ولؤم فردريك .

لقد زادت كاترين من موارد الامبراطورية ، وأفسحت مجال التجارة ، بمـــا اغتصبت من المملكة التركـية ، واطلقت حرية الاتجار في البحر المتوسط ، ومدت في سلطان روسيا ونفوذها ، الا انها كانت تسرف في انفاق الاموال اكثر مما تجمع ، وقـد ضاعفت الضرائب على الرعايا، وارهق الحكام الاهالي حتى أقفرت البلاد وجاع السكان .

وقد كتبت مرة الى الملكة ماري انطوانيت رسالة جاء فيها: «على الملوك والملكات ألا يعبأوا بصيحات الشعب، كما أن القمر لا

يعبأ بنباح الكلاب ، وهذه الكلمات القليلة تلخص سيرتها في جميع أدوار حياتها .

لن نجد لكاترين مثيلاً الا في العصور الخوالي مثل كاليغولا وكليوبترا . لقد احاطت نفسها بندمان لاعداد لهم ، يقدر ما أنفقته عليهم بمائة مليون دولار ، ووزعت عليهم من الممتلكات ما يبلغ في سعته الاقاليم . وبجرة قلم واحدة قلبت رعاياها الذين كانت تدعوهم بابنائها الاعزاء، الى ما دون الرقيق يُنقلون كالماشية من قرية الى قرية ، بيناهي توزع الماس والذهب بلا حساب . وقد التف حولها من حثالة الناس أخبثهم وألأمهم طبعاً ، ولم يماثلها في ذلك سوى لويس الخامس عشر وحاشيته . وكان جميع هؤلاء يعيشون من دماء الشعب المرهق المغلوب على أمره .

وكان أهم أغراض كاترين أمرين : بسط سلطانها غرباً بامتلاك بولونيا ، وطرد الاتراك من الاستانة . وقد ساقت الجيوش الى بولونيا فاكتسحتها ، وأقامت عليها ملكاً من لدنها ، وسنت لها الشرائع بأسنة الرماح ، وذبحت ونفت كل من وقف في سبيلها .

وبقي البولونيون يقاتلون روسيا في سبيل الدفاع عن أنفسهم من سنة ١٧٦٥ الى سنة ١٧٩٥ حين تم للروسيين اخضاعهم .

واستعان البولونيون بالاتراك ، فوقعت الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٧٦٨ ، وكانت حرباً شعواء جرت فيها الدماء مجرى المياه ، ولكنها انتهت سنة ١٧٧٤ بهزيمة العثمانيين ، وقبولهم مطالب كاترين ، واعتراف الباب العالي باستقلال القرم ، وبحق الروسيين بالاتجار في البحر الاسود والارخبيل .

وفي سنة ١٧٧٤ غضبت الامبراطورة على جورج أورلوف وجعلت بوتامكين نديمها ووزيرها ، وكان هذا فاسد الخلق سيء السمعة ، يجمع في نفسه كل الخلال المتناقضة ، لا يحجم عن أمر ، ولا يبلغ ظلمه غاية ، شديد الغواية ، عسوفاً ظلوماً فاسقاً مبذراً ، لم يفتح كتاباً ، ولكنه يعرف كل شيء ولا ينسى شيئاً . وكانت الامبراطورة اذا سخطت على ندمانها استثنت بوتامكين منهم لدهائه وبعد نظره . وقد أفقر ظلمه البلاد ، وأرهق فحشه العباد ، ولكنه كان ماهراً في ادارة اعمال الدولة وتثبيت دعائم الحكم .

انتهت الحرب الثانية ضد الاتراك سنة ١٧٨٣ بضم القرم وكوبان الى روسيا ، وأطلق عليهما اسما التوريد والقوقاز . فطلب بوتامكين الى الامبراطورة زيارة أملاكها الجديدة وكانت على استعداد لذلك .

وفي يوم ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٨٧ غادر موكب الملك سان بطرسبرغ وهو مؤلف من أربع عشرة عربة للامبراطورة وحاشيتها ومائة وستين للاتباع والامتعة وخمسمائة وستين جواداً تنتظرها في كل محطة ، وانطلقت العربات في جلالها هذا تسير مائة ميل في اليوم ، وكلما حلت في مكان أقيم للامبراطورة قصر يشبه قصرها في العاصمة . ولما بلغت مدينة « كييف » أبحرت في الدنيبر في خمسين سفينة حتى بلغت « تشرسون » والاموال ترد اليها من كل ناحية من أنحاء الامبراطورية . وقد أعدّ جيش يتألف من مائة وخمسين الف جندي لخدمتها .

أسرع أمير بولونيا للقائها ، وكان جوزيف الثاني يمتع نفسه

بحضور حفلاتها ومشاهدة مواكبها . وكانت كاترين توزع الماس والذهب بيدها ؛ والاشراف يلقون به بين الاهالي فيلتقطونه من الارض . وقد قضت في هذه الرحلة ستة شهور على هذا الاسراف والتبذير وهذه الاعياد المستمرة !

ملّ لويس الرابع عشر متاعب الحكم فأوى إلى قصره الذي ابتناه لراحته ودعاه تريانون. وابتنى فريدرك الكبير لنفسه مأوى مثله دعاه « سان سوسي » اي بلا همّ. فاقتدت بهما كاترين وابتنت لنفسها مأوى دعته « الهرميتاج » أي المعتزل .

في هذا المكان وضعت كاترين عن رأسها تاج روسيا وتولت حماية الآداب والفنون الجميلة . وكان الندمان يحيطون بها هناك فاذا غضبت على أحدهم أمرته بالسفر قائلة : « انه لا يعرف سوى اللغة الروسية فليسافر إلى فرنسا وانكلترا ويتعلم عنهم آدابهم ولغاتهم » .

شملت كاترين برعايتها في ذلك المعتزل فناني روسيا مثل الشاعر لومونزوف ، والروائي ساموروكوف ، والكاتب خيرسكوف ، والمؤرخ شبريبتوف ، والعالم الطبيعي باللاس . وعنيت بكثير من كتاب فرنسا وعلمائها ، مثل ديدرو الذي أغدقت عليه إحسانها وابتاعت مكتبته مع ابقائها بين يديه . ووكلت إلى لاهارب الجمهوري تربية حفيديها اسكندر وقسطنطين ، وأكثرت من مراسلة فولتير . ولم تكن كاترين على شيء من الميل للفنون والآداب ، ولكنها أرادت من رعايتهم وحمايتهم تعزيز مجدها وسلطانها .

يقوم على بعد خمسة عشر ميلاً من عاصمة روسيا ، ذلك القصر البديع المعروف باسم «تسارسكوسيلو» وهو فرساي بطرسبرغ ، وكانت كاترين مغرمة بهذا القصر وقد أنفقت على تزيينه وتجميله بأبدع التماثيل وأبهج الزخارف أموالاً طائلة ، وبلغت واجهته الفاً ومائتي قدم . وحدث بعد خمسة عشر سنة ان تساقطت منه قطع فدعت بالمقاولين ليصلحوا من شأنه فقدموا لها نصف مليون دولار ثمناً لما تبقى منه ، فقالت ساخرة :

« أيها السادة اني لم أعتد بيع ثيابي القديمة ! »

وبينما كان بسمارك في زيارة القيصر اسكندر الثاني أبصر من نافذة قصر بترهوف ديدباناً في وسط الجبل لم يرَ ما يحرسه . فسأل بسمارك القيصر ما الذي يحرسه هذا الديدبان ؟ فسأل القيصر أركان حربه فقال : « لا أدري » . فسأل الضابط المرافق له ، فأجاب : « لا أدري » . فأحضر قائد فرقة بترهوف وسأله فلم يزد على قوله : « انها عادة قديمة » .

فسأله القيصر : « وما هي تلك العادة؟ » فأجاب : «لا أعرف»

فقال القيصر لقائد الفرقة : « ابحث عن ذلك وقدّم إليّ تقريراً به . » وبعد ثلاثة أيام جاءه التقرير وإذا به : « انه منذ ثمانين سنة أبصرت الامبراطورة كاترين وردة زاهرة في تلك الناحية فأمرت باقامة جندي لحراستها خشية ان يقتطفها أحد . ومنذ صدر أمرها هذا لم تنقطع الحراسة عن هذا المكان » وتلك هي سيطرة القياصرة !

اعتزمت كاترين ان تزوج احدى حفيداتها من غوستاف

ادولفوس ملك السويد . ولكن هذا الأمير كان قد خطب اميرة من آل ماكلنبورغ ، فعرقلت كاترين هذا الزواج ودعت الامير إلى قصرها معتمدة على سلطانها وجمال حفيدتها الأميرة الكسندرة في تحويل عزمه الاول وارغامه على قبول هذه الاميرة ..

وقد خيل لها الوهم ان الامر قد تم كما تشاء وتهوى ، فأسرعت باعداد معدات الزواج ، وهيأت حفلة العرس في القصر الشتوي . ازينت الكسندرة زينة العروس ، ووقفت إلى جانب جدتها الامبراطورة . تمّ كل شيء ولم يأت العريس . وطال الانتظار وخيم على القصر سكون قابض . واصفرت العروس ، واحمرت الامبراطورة ، ونظر المحتفلون كل إلى الآخر نظرة استنكار !

جرى في هذه الاثناء مشهد آخر في القصر الذي نزل فيه ملك السويد ، ذلك أن المستشار ماركوف حمل إلى الملك عقد الزواج لامضائه . وقرأه عليه مسرعاً والملك مصغ اليه ، فلاحظ أن هناك شرطاً لم يتفق عليه : وهو أن من العادة في السويد أن تنكر الملكة مذهبها وتتخذ دين الدولة مذهباً لها . غير أن الامبراطورة ابت لحفيدتها قبول هذا الشرط وجعلت ذلك استثناء خاصاً ! ..

ولما ابى الملك التوقيع على العقد ، صعق المستشار لهذا الرفض . انه صبي يقاوم الامبراطورة . فيا له من امر مدهش ! ألح المستشار وتضرع وأنذر ، لكن غوستاف لم يغير من عزمه . وأخيراً كبر عليه أن يُخدع ، فأخذ العقد ورمى به ، ثم اغلق على نفسه مسكنه وهو يقول : « لا اقبله ولا امضيه » .

من يجسر أن يبلغ الامبراطورة هـذا النبأ وهي في وسط الحاشية والمحتفلين ؟ بعد تردد طويل أقدم النديم زوبوف وأسرّ الأمر الى الامبراطورة. فتدفق الدم الى وجهها وحاولت النهوض فلم تستطع . ولكنها عادت فاستجمعت قواها وصرفت المحتفلين بدعوى أن ملك السويد اصيب بانحراف مفاجيء ، ثم انسلت الى مخدعها .

عادت العروس الى غرفتها خائرة القوى ، مضعضعة النفس ، مبتئسة حزينة ، لانها جرحت في كبريائها وعزتها .

اما كاترين الامبراطورة القاهرة فماذا كان شأنها ؟

لقد اهينت وهي فوق عرشها ، واحتقرت امام حاشيتهـــا . ولكنها ستجد في الانتقام شفاء لغليلها .

ولما عاد ملك السويد بعد ايام الى وطنه ، أخذت كاترين تفكر في الثأر بحرب طاحنة تسحق بها ذلك الفتى ، وإذا بها تسقط تحت ضربة الموت . لقد سقطت وكأنها ساحرة خنقتها سمومها ! ..

لقد وجدت كاترين يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٩٦ ملقاة على أرض غرفتهـا وهي مصابة بالشلل ، وفي اليوم التالي رحلت هذه المرأة بآثامها وجرائمها عن هذا العالم .

واذا كانت كاترين بجرائمها السياسية والشخصية خليقة باللعنة ، فقد كانت على أجلّ ما توصف به المرأة المهذبة من اللطف والرقة واللباقة . فهي لطيفة بين حاشيتها ، رقيقة ، سهلة المراس ، وديعة الخلق . على أن لها من الحزم والبأس ما لا يكاد يخفى على الناظر اليها . وكأن الجمع بين لينها وشدتها هو الذي جعل لها ذلك المقام

المهيب ، وكان من حسن لقائها ، وجلال هيئتها ، وعنايتها بكل مظاهر الملك ، وحرصها على رعاية قدر نفسها ، ما كان يضطر الجميع الى احترامها ، غير أن أنانيتها وانحطاطها وتهتكها ذهبت بكل ذلك ، وجعلت منها تلك المرأة التي استعرضنا حياتها .

وليس بين الشهيرات من ملكات التاريخ ، ملكة خلت حياتها من الاعمال الشريفة ، ولم تجر في أمر إلا عن حب لذاتها وخسة في نفسها ، سوى كاترين دي مدسيس أمبراطورة روسيا التي أطلق عليها التاريخ لقب « كاترين العظيمة » .

ماري انطوانيت

" ١٧٥٥ - ١٧٩٣ "



لا بد لمعرفة أو فهم العـــاصفة العنيفة التي مرت بفرنسا في ذلك الزمن من نظرة تجمع بين طرفيها . هذا لويس الخامس عشر في قصر التريانون ، وقد جلست اليه مدام بومبادور يسمعها رسالة تصف ما انتهت اليه مالية البلاد :

« مولاي ، إن ماليتكم في أسوأ حال ، وان الامور لسائرة الى الخراب . وزراؤكم في عجز ، والحرب تهددنا ، فعجلوا باصلاح المالية . ان مثل هذه الحال تدعو لفرض ضرائب جديدة تطحن الشعب ، وهذه الضرائب ستدفع الشعب الى الثورة . سيأتي وقت يا مولاي يستثير فيه الشعب ولعل هذا الوقت قريب منا ! » .

لم يعلق الملك على هذا بأكثر من قوله : « لا أريد ان أسمع شيئاً عن هذا ، يجب أن تبقى الحال على ما هي عليه ما بقيت » .

وأضافت مدام دي بومبادور الى ذلك قولها : « أصبت يا مليكي ، يجب أن تبقى الحال ما بقينا ، وبعدنا الطوفان » .

وهكذا عند مـا هبت العاصفة ، واشتد خطرها ، وذهب الدوق دي ليانكور يبلغ لويس السادس عشر ان « الباستيل » قد سقط ووقف على أنقاضه شعب يتحدى ملكه ، قال الملك في

دهشة وفزع : « ثورة ! » .

نعم ، انها ثورة ولا شك ، ثورة أخرجت الملك من فرساي ، وماري انطوانيت من تريانون ، فتدحرج تاج فرنسا الى التراب ، وظهرت قبعات اليعقوبيين الحمراء عند أبواب القصر . والتقت الفوضى والاضطراب، والخطأ والصواب، والفلسفة والدين، في صعيد واحد تحت راية ذلك الحكم الرهيب !

غادرت ماري انطوانيت قصر والدتها الامبراطورة ماريا تريزة في فيينا يوم ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٧٧٠ ، وكأن ما أريق من الدموع يوم رحيلها ، كان نذير تلك الحياة التعيسة التي ستقضيها في فرنسا مع زوجها لويس السادس عشر، حيث صارت رهينة القدر.

كان لويس السادس عشر ضخم الجسم ، خجول الطبع ، على شيء غير قليل من الفتور في العزيمة ، بحيث ان والده الملك كان أكثر نشاطاً وحركة في حفلة العرس من العريس ذاته . وكانت ماري انطوانيت حين ذلك في السادسة عشرة من عمرها ، وقام بعقد الزواج رئيس أساقفة باريس في كنيسة القصر يوم ١٦ ايار (مايو) سنة ١٧٧٠ .

جرت الحفلات في أبهة لم يذكر الفرنسيون لها مثيلا الا أيام لويس الكبير ، والخزانة تنفق بالرغم من عسرها ، وبلغ مقدار ما أنفقته على حفلات الزواج عشرين مليوناً من الفرنكات ، وهو مبلغ له قدره في ذلك الزمان .

وكان يوم ٣٠ ايار (مايو) آخر أيام حفلات باريس، وأطلقت في تلك الليلة الالعاب النارية على أبهى وأجمل ما يكون ، فتسابق

الناس الى مشاهدتها في ميـدان لويس الخامس عشر « ميدان الكونكورد الآن » . واكتظت الشوارع بالناس ألوفاً ألوفاً . ولسوء الحظ اشتعلت النصب التي علقت عليها الحرائق ، ولم يكن من سبيل لاطفائها . فعـلا الصياح من كل جانب وتصاعدت زفرات المنكوبين ، وذهبت مئات النفوس اختناقاً ، حتى أكلت النار بعضها فانطفأت . وهكذا انتهت تلك الحفلات الفخمة ، بين النواح والعويل ، كأنها نذير سوء للمحتفل بها ماري انطوانيت وما ينتظرها في حياتها الزوجية !

وبعد ذلك بأربع سنوات ، وفي منتصف الليل ، فاضت روح لويس الخامس عشر ، وتجاوبت الاصداء بذلك النداء : « مات الملك ، ليحي الملك » . وأسرع الرسل الى مسكن لويس السادس عشر زوج ماري انطوانيت ينادون به ملكاً على فرنسا . وسجد الملك الجديد وزوجته لله متوسلين :

« اللهم ارشدنا وخذ بيدنا فإننّا أصغر سناً من أن نحكم ! » .

لم يمض على موت الملك ثلاث ساعات ، حتى أقفر قصر فرساي فراراً من الطاعون الذي فشا في أنحائه ، وانتقل لويس السادس عشر وزوجته الى شواربي ، ولم يبق في القصر بجانب جثة الملك سوى نفر من الكهنة وطائفة من الخدم ، وسار هؤلاء في غير احتفال بالجثة إلى سان دنيس .

ذهب الملك المحبوب لويس الخامس عشر وسرعان ما نسي ، وتحولت أنظار الأمة الى لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت . ولكن الامة كانت قد تغير شأنها فلم تعد تحتمل

سيئات الحكم المطلق ، ونهضت تطالب بحقوقها ، ولم يعد في الامكان الاستمرار على ذلك المبدأ القديم القائل : « الدولة أنا » ، ولا ذلك الحق السماوي الذي يحكم به الملك على ما يشاء !

تحولت الانظار الى الملك الشاب ، والتف الشعب من حوله ، وهو يعقد عليه آمالاً كبيرة ، ودعاه لويس المشتهى ، على رجاء ان يدير سفينة الدولة ، وينقذها من ورطتها ، ويسير بها بين العواصف التي تتجاذبها ، وينجو بها سالمة الى برّ السلامة .

ولو أخلص لويس السادس عشر النية والعزيمة ، لكان عند ظن الشعب به ، ولم يكن في ملوك فرنسا من يدانيه عظمة ، إلا انه رغم طيب قلبه وسلامة نيته ، كان ضعيف العزيمة فاتر الهمة : لقد بدأ ضعيفاً وانتهى ضعيفاً . ولو ان الامر كان بيد الملكة ماري انطوانيت ابنة الامبراطورة ماريا تيريزة، لقضت على الثورة في مهدها بيد من حديد . ولو ان الملك كان من الحزم بحيث ينفذ اليوم ما أبرمه بالأمس ، لانتقلت فرنسا في هوادة من الحكم المطلق الى الحكم الدستوري. ولكن حسن ارادته وفضل اعتزامه ، كان يتلوهما الضعف والتردد، مما جعل وحدة الرأي محالاً والثورة أمراً محتوماً !

عاد الملك في حفلة رسمية الى العاصمة، فقابله الباريسيون فرحين مهللين ، وأطربه هتافهم فقال :

« ماذا فعلت حتى يحبوني هذا الحب ؟ »

وكان حرياً بأن يجاب : انك لم تفعل شيئاً ولكن المنتظر منك كثير . إلا ان لويس السادس عشر لا ارادة له ، وكأن

ضخامة جسمه كانت تحول بينه وبين تنفيذ ما يشرع فيه .

وفي يوم ١٠ حزيران (يونيه) سنة ١٧٧٥ توج «لويس الصالح» كما كان يدعوه الشعب في حفلة لا يعرف ان ينظم مثلها سوى الفرنسيين . وأرادت امبراطورة النمسا ماريا تيريزة ان تتوج ابنتها مع الملك ، إلا انه لم يبد من ماري انطوانيت ميل الى ذلك .

نشأت ماري انطوانيت على ما ألفته من الحرية في قصر النمسا ، فكان لا بد لها من زمن طويل حتى تأخذ بالتقاليد الفرنسية ، إذ كان لكل حركة ولكل خطوة ولكل حديث شرائط معينة ورسوم محدودة في البلاط الفرنسي لا يجوز الاخلال بشيء منها .

نذكر مما كتبته مدام كامبان عن تلك التقاليد بعد ان وصفت ما كان يحيط بالملك والملكة من الابهة والنظام والرياش : « إن ماري انطوانيت كانت تلبس ثوباً أبيض بسيطاً وعلى رأسها قبعة من القش وبيدها سوط صغير ، وكانت تسير على قدميها لا يتبعها سوى خادم واحد حتى تبلغ لبتي تريانون ، ولم يكن في منظرها ما يأخذني . وظني ان هذه السذاجة هي أول اخطائها وأحقها في نظر كل من دنا منها . »

لقد حدث ذلك في حين ان خدمة الملك والملكة وولي العهد كانت شرفاً يتسابق اليه كبار القوم وكبيراته . ولم يكن للملكة ان تبارح مكانها دون ان يسير خلفها الاشراف والشريفات ، ولم يكن لها ان تخلع ثياباً أو تلبس غيرها الا في نظام تقاليد لا بد منها كما يحدث في بلاد مادي وفارس .

حدث في صباح يوم من أيام الشتاء القارس ، ان الملكة ماري انطوانيت كانت نصف عارية تقريباً ، وأرادت ان ترتدي ثوباً فأخذته السيدة الوصيفة اليها، واذا بالوصيفة الاولى تدخل وتقضي اللياقة الرسمية في مثل هذه الحال ان تقدمه هي، فنزعت قفازها بسرعة وتناولت الثوب . وفي هذه اللحظة قرع الباب وكانت القادمة هي دوقة أورليان ، والرسميات تقضي بأن تكون هي حاملة الثوب ما دامت قد دخلت الغرفة ، ولكن القوانين المتبعة تقضي بأن يعاد الثوب الى الوصيفة ومنها الى الوصيفة الاولى ومن هذه الى الدوقة، فدار الثوب دورته، واذا بالكونتس دي بروفنس داخلة فأعيد الثوب الى دور ثانٍ تتبادله الايدي تدريجياً حتى يصل الى الكونتس وهي تقدمه الى الملكة لانها ارفع الحاضرات مقاماً . ولما رأت الكونتس أن الملكة تنتفض برداً ، لم تنتظر حتى تخلع قفازها ، بل أسرعت بالقاء الثوب على كتفي الملكة ، فلم تطق الملكة صبراً وصاحت : « ما أبعد هذه اللياقة وما أكثرها عناء » .

هذا شيء من تقاليد فرساي حينذاك ! ..

وأهدى لويس السادس عشر الى ماري انطوانيت قصر البتي تريانون لتكون فيه على ما تشاء من الحرية ، ولم يكن شيء أحب اليها من ذلك ، فأقامت فيه طليقة من قيود التقاليد ، تمرح في ثوبها الابيض وقبعتها القش ، تقطف الزهور ، وتطارد الفراش ، وتحادث الفلاحات وهن يحلبن على أبسط ما يكون .

وجلبت هذه السذاجة على ماري انطوانيت شهرة ساخرة

وجعلتها مضغة في أفواه الكثيرين في فرنسا وأوربا ، ولم تدخر عمات الملك وسعاً لجمع الاحاديث يتحدثن بها في تهكم على الملكة !

ومن أخطائها التي لا يغتفرونها لها أنها أمرت يوماً السيدات اللواتي كن في حاشيتها بالجلوس . وقد ساء هذا الأمر صاحبات المقام الاول وعددنه سماجة وغلظة ، وتشدقت به الشريفات في يلفي ولوفيسين . والويل لماري انطوانيت التي لم تكن تفكر في شيء من هذا !

كان من شأن سذاجة الملكة وضعف الملك ان ذهبا بالكثير من هيبتهما .

ووضعت الملكة يوم ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٧٨١ صبياً فهنأها الملك بقوله : « لقد أتيت يا سيدتي اليوم بأعز ما تتمنى الامة . جئت لها بولي عهد » وقد بلغ السرور من الشعب مبلغ الجنون ، اذ كان يجتمع الناس من كل الطبقات يقبل بعضهم بعضاً على غير معرفة . وكان سرور الملك أبلغ ..

وكانت الملكة حينذاك في ريعان الشباب ، وعلى أجمل ما تكون ، بحيث كانت موضع اطراء الكتاب الفرنسيين . غير ان احترام الملك والملكة أخذ يتضاءل حتى اجترأ عليه آله بحيث انك لو دخلت عليه في مجلس لما عرفت أيهم الملك .

كان يوم ٥ ايار (مايو) سنة ١٧٨٩ يوماً عظيماً ازدانت فيه فرساي بأبهى رياشها وطنافسها . في ذلك اليوم منح الملك الشعب برلماناً حرم منه مائة وخمسين سنة . وكان في نظر الجميع مطلع عصر الحرية القومية . على ان الشعب عندما رأى موكب

السائرين الى البرلمان في صفوف متباينة تفرق بين طبقات الامة ، خامره الاستياء ، اذ كان الشعب نفسه في آخر الصفوف ليس بينه من الاشراف سوى الكونت الشعبي ميرابو .

ومرّ الامراء ثم الملك في غير أبهة ، والملكة في جلالها الطبيعي تدل هيئتها على انقباض في النفس تحاول عبثاً اخفاءه ، فلم يحيها الشعب كعادته هاتفاً : « لتحي الملكة » بل كانت صيحاته : « لتحي أسرة أورليان » .

نقم الاشراف على سلطة الشعب النامية ، وتحالفوا على أن يطفئوا شرارة الحرية . وعقد الملك يوم ٢٣ حزيران (يونيه) جلسة في فرساي ، وقد أضمر الاشراف القضاء على جماعة الشعب ، وكانت الحفلة في نظامها وتقاليدها على ما كانت الحفلات في العهد القديم فجعل الملك همه في كل خطابه تكرار العبارات الآتية « أريد – آمر – أنهي » وختم خطابه بقوله : « آمركم أيها الاشراف بالانصراف وان نعود غداً صباحاً الى المجلس حسب نظامكم » .

وانصرف الملك وحاشيته وتلاهم الاشراف والكهنة . انطلق هؤلاء واثقين بانه قد قضي على جمهور الشعب . ولكن نوابه بقوا في مقاعدهم ومن ثم كانت الازمة . كان لا مفر من واحدة من اثنتين : المقاومة أو الخنوع ، الثورة أو الاستعباد . ولاحظ المركيز بريزة ان الجلسة لم تفض ، فتوسط الساحة وصاح بصوت جهوري ، صوت يخضع له خمسون ألفاً من الجنود على استعداد تام للعمل : « هل سمعتم أمر الملك ؟ » .

فأجابه ميرابو بعين يتطاير منها الشرر وصوت كصوت الرعد:
« نعم سمعنا أمر الملك . ولست – أنت الذي لا محل لك هنا ولا صوت – بالذي يذكرنا بكلماته . اذهب وقل لمن أرسلوك إننا هنا بقوة الشعب ولا شيء يخرجنا من هنا سوى قوة الحراب » .

كان الاشراف يتهادون التهاني فرحين مسرورين لاعتقادهم بانه قد تم لهم القضاء التام على جماعة الشعب ، وراحوا يتسابقون الى تقديم تهانئهم الى الملك ، وبلغ من سرور ماري انطوانيت ان قدمت اليهم ابنها قائلة : « اني أعهد به الى الاشراف ! » .

ودخل المركيز دي بريزه وأبلغ الملك ان النواب مستمرون في جلستهم وأنه ينتظر أمره ، فخطا الملك خطوات ثم قال : « حسناً دعهم وشأنهم ! » .

لو ان هذا وقع في عهد لويس الرابع عشر لبعث بهم الى الباستيل أو المشنقة ، ولكن عصر لويس الرابع عشر كان قد انقضى !

جاء يوم ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٧٨٩ واذا باريس كلها في هرج . لقد احتشد ابناء الشعب واخذوا يبحثون عن سلاح ، وحملوا كل ما وجدوه من سيوف وغدارات وبندقيات . ثم أغاروا على الترسانة الملوكية ولم يبقوا فيها على شيء .

ولكن ماذا يغني الشعب هذا السلاح وقد وقف الماريشال بروغلي بخمسين الف جندي مدججين بالسلاح على مقربة من فرساي ، ووقف لهم بنسفال ببضعة آلاف من الجنود السويسرية والجرمانية في شان دي مارس متأهبة للانقضاض على هؤلاء

الباريسيين، وتلك القلعة الهائلة المخيفة قلعة الباستيل التي يبلغ سمك جدرانها أربعين قدماً من أدنى ، وخمسة عشر قدماً من أعلى ، وقلاعها التي تعلو الى ارتفاع مائة وعشرين قدماً بمدافعها . فهل يمكن الاستيلاء على الباستيل ؟

اشتد طلب الشعب للسلاح ، واتجهت الانظار الى الانفاليد . ولم يلق الثوار من الحرس مقاومة كافية ، فاندفعوا الى المخازن واستولوا على ثلاثين ألف بندقية وستة مدافع ، ثم تصايحت هذه الجماهير بكلمة واحدة : الى الباستيل .. الى الباستيل ! وكانت الاصداء تردد هذا النداء وتتجاوب به من جميع الانحاء .

انقض من عامة الشعب مائة ألف أو يزيدون على ذلك الحصن الحصين ، حصن فرنسا الذي حاصره البرنس دي كونده ثلاثة وعشرين يوماً وارتد عنه حاسر الطرف .

وقف دي لوني حاكم الحصن على قمة القلعة ساعات طويلة يسمع زئير الشعب وزمجرة ذلك السيل الجارف . وأوفد الناخبون من « أوتيل دي فيل » مقر الثوار المسيو توريو يدعو الحاكم الى التسليم . فقال له : « اني أدعوك باسم الشعب إلى تسليم الحصن . »

وكان دي لوني ينتظر مجيء الجنود من فرساي ، فأبى التسليم قائلاً : « لا أطلق النار على الشعب إذا لم يطلق الشعب النار عليّ . » وأبصر توريو بالمدافع وكان يعلم ان قد صدرت اليه الاوامر من أوتيل دي فيل بجلها فقال :

— انك لم تحل المدفعية ؟

– لقد سحبتها فقط .
– أوَلا تنوي حلها إذن ؟
– ان المدافع هنا بأمر الملك ولا تحل إلا بأمر من الملك .
فقال توريو مشيراً الى الجماهير التي تملأ الميدان مشهرة سيوفها :
– يا سيد دي لوني ان الملك الحقيقي الذي أنصح لك بطاعته هو هذا .
– قد تعرف أنت ملكين ، أما أنا الحاكم فلا أعرف إلا ملكاً واحداً هو لويس السادس عشر الذي بأمره أسيطر هنا على كل شيء .
ثم احتدم فقال : باسم الملك آمرك ان تترك هذا المكان حالاً .
انسحب توريو وبدأ الهجوم ، هجوم الباريسيين كلهم ، شعب وكهنة ونساء وأطفال ، ودام الهجوم خمس ساعات تباعاً ، ثم رفعت القلعة علم السلام . ذلك ان دي لوني رأى نفسه وحيداً لم تأته الجنود من فرساي ، وانصرف عنه رجاله الى الثائرين . وأراد ان ينسف القلعة باضرام النار في مخازن البارود ، وكان بها مائة وثلاثون برميلاً ، فاعترضه جنديان وحالا بينه وبين ما أراد ، فأنقذا مئات الالوف من الموت .
ورأى الناس علم السلام فأوقفوا اطلاق النار وهتف الجميع :
– سلم الباستيل .. سلم الباستيل !..
ذهب النوم عن عيون جميع سكان فرساي إلا الملك . فقد بقي له الحرس الفرنسي والحرس السويسري وجميع الاشراف ،

ومن بقي وفياً له من الاهالي،غير ان الشعب باستيلائه على الباستيل قد أصاب منه مقتلاً .

يقولون : « من أراد الله به شراً ذهب بصوابه » . وقد كان هذا شأن الحاشية الفرنسية ، إذ أمعن الاشراف في الكبرياء العالي واحتقار الشعب ، حتى قالت ماري انطوانيت جازعة : « ان هؤلاء الاشراف يدفعون بنا الى الخراب » .

كان جيش فلانـدر معسكراً في فرساي ، وفي أول تشرين الاول ، (اكتوبر) أقيمت في القصر مأدبة للضباط جرى فيها الشراب مجرى المياه ، وكان الاسراف والبذخ على أقصاهما. وبينما كانوا يسخرون من الشعب وثورته ، كأن هؤلاء قد رفعوا رايتهم واشتد حنقهم. القصر يقيم الولائم والشعب يتضور جوعاً. فرساي تتهلل فرحاً ، وباريس تذرف دموع الحزن .

جاء يوم ٥ تشرين الأول (أكتوبر) وكان حالك الظـلام قارس البرد،وأهل باريس لا يجدون ما يسدون به الرمق. ازدحم الناس حول المخابز ولم يجدوا كسرة من الخبز . فصاح بهم صائح : « الى فرساي أيتها النساء » فانطلقن الى فرساي تتقدمهن فتاة تحمل الطنبور ومن وراءها يصحن: « خبز ! خبز» لنعلّم الرجال الشجاعة ، واذا لم يكن في وسعهم حمايتنا فلنحم أنفسنا ، إلى فرساي ، إلى فرساي » .

وقف الجمع بباب التويلري فأسرع السعاة لابلاغ الملك والملكة بالخطر الداهم، فلم يكن منجلالته سوى الذهاب والتلهي بالصيد والقنص في ميدون ، ثم عاد فرأى في قصره سبعمائة رجل

قد جردوا السيوف وتأهبوا للدفاع عن القصر .

لم تمض خمس دقائق حتى وصلت النساء ، ودخل الى الملك خمس عشرة منهن ، فأحسن الملك لقاءهن ووعدهن خيراً ، فانطلقن ينشدن : « فليحي الملك » .

وفي الساعـــة التاسعة أشيـع ان الجنرال لافاييت على رأس الحرس الوطني والحرس الفرنسي وجماعات من الباريسيين ، في سبيلهم الى فرساي . فأسرع المسيو سان بريست فأبلغ الملك ناصحاً له بمغادرة القصر وقال له ان الركائب معدة لسفره حيث يشاء آمناً .

ولكن لويس ابى الا المقام حيث هو ، ولم يفعل ذلك عن شجاعة رغبة في مواجهة الحوادث بل لعجزه عن اعتزام أيّ أمر ، فحقت عليه كلمة الملكة : « الرجل المسكين ! »

لم تجد الملكة في زوجها عوناً ، ولم تكن في حاجة الى أحد ، فبقيت وحدها محتفظة بشجاعتها ، لأن ابنة ماريا تيريزة تعرف ما تريد ، ولا ترهب فرنسا كلهـا ، وقد اقامت حيث أولادهـــا وزوجها .

وصل لافاييت عند منتصف الليل ، وكان قد أنهكه التعب وعزم على حماية القصر ، وطلب إلى الملكة والسيدات الانصراف الى مخادعهن ، وان ينمن ملء جفونهن .

ولكن جماعات الشعب اهتدت بالرغم من الحراس الى باب غير حصين ، فولجوه متدافعين حتى بلغوا مكان الملكة . ووقف الحرس للهاجمين يدافعونهم حتى تساقط رجاله واحداً بعـد آخر ،

وكانت الملكة قد تمكنت من النجاة بنفسها ، فاقتحم الجمهور غرفتها وأخذوا يطعنون فراشها بالرماح حنقاً ، حتى جاء لافاييت فأخرجهم .

كان ذلك يوم ٥ تشرين الأول (أكتوبر)، وما طلع صباح اليوم السادس حتى ازدحم الناس حول القصر يطلبون الى الملك الذهاب إلى باريس، ولم يكن في وسعه سوى إجابتهم الى طلبهم، فهتفوا جميعاً : ليحيَ الملك . ولكنهم أعلنوا سخطهم على الملكة فكان صياحهم : « لتسقط النمسوية » .

قال لافاييت للملكة : « إن الملك سيسير إلى باريس فماذا تفعلين ؟ »

فكان جوابها : « أصحب الملك » .

وفي المساء سار الملك والملكة إلى باريس ...

وتتابعت الشهور حتى ملّ الملك المقام ، وأخذ يفكر في الهرب ، والوصول إلى الحدود ، حيث يجمع رجاله وينظر في تسوية الخلاف الذي أودى بالمملكة .

وكان جبرائيل أونوره دي ميرابو « ابن الصاعقة » ، وأشد من تكشفت عنه الثورة ، وأروع الرجال خلقاً ، وأعظم خطباء فرنسا، يملك زمام الجمهور، ويعتقد انه وحده الذي يستطيع انقاذ الملكية .

وفي سانت كلود جرت المقابلة المشهورة بين ميرابو وماري انطوانيت ، فعرفت له قدره ، وأثنى على جلالتها ، ودامت المحادثة ساعة ختمها ميرابو بقوله : « ان سيدتي الامبراطورة

والدتك كانت إذا أذنت لاحد في محادثتها لا تصرفه حتى تسمح له بتقبيل يدها » .

فمدت اليه ماري انطوانيت يدها فقال ميرابو : « مولاتي ، لقد نجت الملكية » .

ولكن القدر لم يمهل ميرابو حتى يبدو منه ما يدل على حرصه على وعده أو نقضه ، فقد لفظ النفس الاخير في نيسان (أبريل) سنة ١٧٩١ ، وبموته ماتت آمال الملك والملكة ، فاعتزما الهرب وأعدّا كل شيء ، وخرجا تصحبها اليزابيت والطفلان ومدام تورزيل . وركب الجميع العربات وجرت بهم مسرعة ، إلا أنهم لسوء حظهم اكتشف أمرهم في فارين ، فردّهم الشعب إلى التويلري أسوأ ردّ ، وكان ذلك يوم ٢٠ حزيران (يونيه) سنة ١٧٩١ .

ومضت سنة كاملة ، وفي يوم ٢٠ حزيران (يونيه) سنة ١٧٩٢ أحاط الشعب بالقصر هاتفاً : « لتحي الامة » . ثم اندفع الثوار إلى القصر وأكرهوا الملك على لبس القبعة الحمراء قبعة اليعقوبيين ، فلبسها صاغراً والشعب يهتف ساخراً : « فليحيَ الملك » .

وعاد لويس بعد انصرافهم إلى غرفته ، وذهب إلى المرآة فأبصر هذه القبعة على رأسه ، فجزع وبكى وقال لزوجته : « سيدتي لم آتِ بك من فيينا لتشهدي هواني على هذا الشكل ! »

وازداد موقف الملك والملكة مع الايام خطورة ، فرأى الملك عملاً بمشورة أصحابه أن يحضر الجلسات العمومية بنفسه .

ذهب إلى المجلس فأبت عليه جماهير الشعب الدخول قائلة :
« لا يدخل . لا تخدع الامة . النزول عن العرش أو الموت » .
ولكن الجنود أفسحوا له الطريق ودخلت العائلة المالكة المجلس ، فدنا الملك من الرئيس وقال : « جئت إلى هنا منعاً لوقوع جريمة كبرى ، ولأني لا أعرف مأمناً خيراً من المقام معك »

فأجاب الرئيس : « لتثق جلالتك بنيات المجلس »

وكان المجلس شديد الزحام ، والكل في ريب من الموقف ، وقد ساد الشعور بأن العاصفة تتجمع على رأس العرش ، ولن يمنع انقضاضها مانع . وأشار الملك إلى أحد أتباعه وحادثه همساً فانطلق التابع . ففزع النواب وأحاطوا بالرسول يسألونه في لجاج : « بماذا أمرك ، أي أمر صدر ؟ تكلم . تكلم » . فضحك الرسول قائلاً : « ألا تذكرون أنكم أمام « بوربوني » لقد أمر الملك أن أعد له الغداء ! » .

تلك كانت حال الملك ، فبينما كان الثوار يهاجمون قصره ، والحرس السويسري يسفك دمه دفاعاً عنه ، كان هو يمتع نفسه بالطعام والشراب في غير مبالاة .

وفي صباح يوم ٢١ كانون الثاني (يناير) حوكم الملك ،وصدر حكم القضاء بموته ، وسقطت رأسه الملكية تحت سكين المقصلة ، وبقيت الملكة وأولادها أسرى السجن .

أخذت ماري انطوانيت من سجن « التامبل » إلى سجن الكونسيرجري لانتظار يومها المشؤوم ، وبينما كانت داخلة اصطدم رأسها بحدائد الباب فسال دمها ، فسألها الحارس :

« هل أصابك سوء يا سيدتي ؟ »
فقالت : كلا لم أشعر بألم .

ولم يكن أحد يواسيها في سجنها سوى امرأة السجان وروزالي لامورليير . وبقيت عشرة أيام دون أن تبدل ثيابها رغم رجائها ، غير أن ميشوني أحضر لها من سجن التامبل بعض القمصان والثياب الداخلية . وذلك الثوب الابيض الذي ارتدته يوم نفذ فيها الحكم . ولم يكن أصعب عليها من أن ينتزع كل يوم من حلاها وتذكاراتها المحبوبة ما تمنحه للسجان ولرفيقتها . شتان بين ما كانت تمرح فيه ايام عزها من نعيم ، وبين ما تلقاه في سجنها من ضنك وما يصدع آذانها من تهم كزوجة ووالدة ، تحتملها في غير تذمر أو شكوى !

وكان آخر ما أصابها في عزة نفسها أن انتزعت هدية والدتها وهي قفاز وخصلة شعر ، وأرسلتها مع أحد الاوفياء للويس السادس عشر وهو المسيو هيو ، ليوصلها إلى ابنها ، وانتزعت آخر حليها وقدمته إلى السجان فعُرف وصودر .

وفي يوم ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) جيء بماري انطوانيت للمحاكمة ، وكان في مجلس القضاء رئيس وأربعة قضاة والمنفذ وكاتب السجل وخمسة عشر من المحلفين ، وكان يلوح على وجوه الجميع ما قُدّر للملكة .

والحقيقة أن أهوال عهد الارهاب كانت قد بلغت حد الجنون ، ويقال إن الجلاد فوكيه تنفيل كان يقول إنه يشهد بعيني رأسه أرواح قتلاه تهدّده نهارا ، فقد بلغ عدد ضحاياه من يوم ١٠ اذار

(مارس) سنة ١٧٩٣ إلى يوم ٢٧ تموز (يوليو) من السنة التالية ألفين وستماية وتسعاً وستين نفساً .

تقدمت الملكة في ثوب ملطخ بالسواد ، وبدأ استجوابها من قِبَل القضاة :

— ما اسمك ؟

— ماري انطوانيت دي لورين النمسوية.

— ما هو شأنك ؟

— أرملة لويس ملك فرنسا .

— كم عمرك ؟

— ثمانية وثلاثون .

وتليت ورقة الاتهام ، وتقدم الشهود ، وما كان آلم لنفسها من أن ترى بينهم أناساً تعرفهم حق المعرفة ، وشرهم سيمون سجان ابنها ، ولما وجهت اليها تهمة العلاقة الفاسدة بينها وبين ابنها لم تحر جواباً . ولما سئلت في ذلك ثانية قالت وهي مالكة جميع قواها في ثبات عجيب :

« لم أجب لأن الطبيعة نفسها تأبى الجواب على تهمة كهذه توجه إلى والدة. إني أستشهد بالسيدات الحاضرات وجميعهن أمهات أولاد في سن ابني الصغير » .

ولما انتهى التحقيق سئلت الملكة هل لديها ما تقوله فأجابت :

« كنت ملكة فانتزعتم تاجي ، وزوجة فقتلتم زوجي ، ووالدة فحرمتموني أبنائي ، لم يبق سوى دمي فخذوه ولاتطيلوا عذابي » .

وساد السكون ...

وأصغت في هدوء إلى الحكم عليها بالموت ، وكان ذلك صباح ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٣ .

سارت الملكة بعد أن عانت محاكمة دامت عشرين ساعة في هدوء ، دون ان تلقي على قضاتها نظرة لوم أو غضب !

وقد كتب سانت بيف عن ذلك : « لا أظن أثراً أدل على فظاعة جنسنا وشناعة طبائعنا من محاكمة ماري انطوانيت . فلو نظر انسان الى عصر يعد نفسه مستنيراً ، بالغاً درجة عالية من الحضارة ، يختم عهده بعمل وحشي كهذا ، فلا بد من ان يشك في ان الوحشية الضارية التي تسكن أبداننا هي صاحبة الامر فينا » .

كانت باريس صباح ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) أشبه بمعسكر عام ، الجنود مصطفة في الطرقات ، والمدافع منصوبة ، وقد منع السير في الطرق ما بين الكونسيرجري وميدان الثورة .

ونزلت ماري انطوانيت من سجنها ، وما ان رأت العربة في انتظارها حتى جزعت ، غير ان جزعها لم يطل ، فقد استبسلت كعادتها وركبت العربة وخلفها سامسون ووكيله ، واخترقت العربة شارع سان أونور ، والشعب يلج حولها بهتافه المؤلم : «لتسقط النمسوية ! »

سارت في موكبها هذا والجنود من حولها حتى لكأنها تسير في موكبها أيام عزها والناس يهتفون : لتحي الملكة ! »

وبينا كانت الملكة تصعد درج المقصلة وطأت قدمها رجل

الحارس ، فالتفتت اليه في دعة قائلة : « أرجوك المعذرة » ثم ركعت وصلت صلاة قصيرة ، ثم وجهت نظرها الى سجن التامبل وقالت :

« وداعاً يا أبنائي اني ذاهبة للحاق بوالدكم » .

وشُدت الى اللوحة ، وانحدرت سكين المقصلة ، وختمت مأساة ماري انطونيت ! ..

جوزفين

"١٧٦٣ - ١٩٢٠"



إن في حوادث التاريخ ما هو أدعى للعجب من تخيل الرواة، وأعجب ما دوّنه التاريخ من عجب حوادث جوزفين أمبراطورة الفرنسيين .

لم تكن جوزفين على شيء كبير من التهذيب العلمي ، إلا براعة في الموسيقى والرسم والتصوير والرقص ، مما جعلها على علم دقيق بالمسائل الكبرى وابرع من يتحدث الى الناس ببصيرة في الشؤون السياسية ، حتى قال عنها نابوليون انها أحكم وأبصر مستشاريه ، مع اخلاص صادق لزوجها كان له أثره في جميع أعماله، وكان إذا ذكرها قال انها مرشده الامين .

نذكر لجوزفين قبل زواجها من بونابرت حادثتين : الاولى اذ كانت فتاة تمرح في مزارع عمها في الهند الغربية ، حيث شاهدت فتيات قعدن الى عجوز عرافة تكشف لهن عن مستقبلهن، فدفعها الفضول الى التقدم اليها ..

وما إن أبصرت العرافة كفها حتى علتها الدهشة .

فقالت جوزفين : ماذا ترين ؟

فقالت العرافة : لن تصدقي ما أقول .

قالت جوزفين : تكلمي . تكلمي . هل هناك ما يُخشى أم ما يُرجى ؟

فقالت العرافة : أنت المسؤولة اذن .. إصغي اليّ : ستتزوجين قريباً ولن يكون زواجك سعيداً ، وتصيرين ارملة ، وبعدها تكونين ملكة فرنسا ، وتقضين سنوات سعيدة ثم تموتين في مستشفى .

لم تأبه جوزفين لهذه النبوءة ، بل كانت تمزح بها مع رفيقاتها . ولكنها بعد أن تزوجت من الفيكونت دي بوهرنيه وسقطت رأس زوجها تحت سكين المقصلة ، وأودعت السجن حيث التقت بمدام دي فونتني ، عاودتها تلك النبوءة فكانت تتلهى بها متشجعة زاعمة لرفيقتها انها لن يكون نصيبها الموت وانها ستكون ملكة فرنسا !

كان المسيو تاليان احد كبار رجال الثورة ، يحب مدام دي فونتني حباً جماً ، ويمر أمام سجنها كل يوم حيث كانت تبصر به هي وجوزفين من النافذة الحديدية . رأته مدام دي فونتني يوماً فأومأت اليه ان اقترب فدنا من النافذة فأسقطت له في ورقة كرنب الرسالة التالية : « تقررت محاكمتي والنتيجة مؤكدة ، فان كنت تحبني كما تزعم فابذل جهدك لانقاذ فرنسا وانقاذي » .

فزع تاليان لما يهدد حياة حبيبته فأطلق لسانه في « الكونفنسيون » ضد الطاغية روبسبير حتى أهاج النفوس ضده ، وكان في ذلك سقوط رأس الطاغية تحت تلك المقصلة التي أذهب بها حياة الكثيرين ، وهكذا نجت مدام دي فونتني ونجت جوزفين

واشتد يقينها بأنها ستصير يوماً ملكة فرنسا .

أما الحادثة الثانية فقد وقعت لها بعد أن خطبها الجنرال بونابرت ، اذ مضت به يوماً لاستشارة محاميها العجوز المسيو راجيدو ، وتركت خطيبها في غرفة الاستقبال المجاورة، ودخلت هي الى المحامي واطلعته على خطوبتها من الجنرال ، فانكر عليها ذلك وأراها سوء حاله وشنع عليه، وكان بونابرت يسمع ذلك عن غير قصد . لقد ساء رأي المحامي فيه بينما كانت هي تدافع عنه والمحامي يزداد في الحط من شأنه. ولم يطق نابوليون صبراً ، فنهض عن مقعده يريد الذهاب ، ولكن جوزفين ابصرت فأسرعت وتأبطت ذراعه ، وانصرفا لا يتحدثان في شيء مما جرى ، الى ان دارت الايام دورتها وجاءت عشية تتويج نابوليون وجوزفين ، فدعا الامبراطور المسيو راجيدو وأعاد اليه ذكرى مشورته ، وما سلف منه اليه من الهجاء . فاعتذر الرجل بأن لم يكن له علم بالمستقبل فقال الامبراطور : « ان المستقبل فوق علم كل انسان » وبعد أن أبدى له سخطه عطف عليه وقال : «اني أحكم عليك بأن تحضر حفلة تتويجنا غداً وان تكون في مكان بحيث أراك » وكان في ذلك عقاب للمحامي العجوز .

كانت جوزفين اذا غاب نابوليون لا تستقر حتى تعلم أخباره ، فاذا كان في حرب أمرت أن يؤتى اليها بأنبائه في كل وقت تصل ليلاً أو نهاراً . وقال لها بورين يوماً : « اني على يقين من انك ستكونين على الرغم منك ملكة أو امبراطورة » فأجابته جوزفين : « لا أطمع في شيء من هذا، وكل ما أتمنى أن أبقى زوجة القنصل

الاول » .

أما عنايتها بخدمها وعطفها على كل من حولها فكانت فيهما مضرب الامثال .

ولقد سمعت مرة في ليلة باردة رجلا يسعل تحت نافذتها ، فعجبت أن يكون انسان في ليلة كهذه خارج منزله عرضة للبرد ، وسألت عن ذلك فقيل لها انه الحارس . فما كان منها في الغد الا ان استدعت الضابط وقالت له : « كفى الجنود ما يلقونه في الحروب من بلاء ، فاذا رجعوا الينا وجبت العناية براحتهم ، اني لا أريد حارساً » فابتسم الضابط لعطف الامبراطورة وصرف الحارس وألغى مهمته .

وكان المعروف عن نابوليون أنه قليل التحدث ، بحيث انه لو شوهد يحادث أحداً عجب الناس وسجلوها عليه . وقد وصفته جوزفين في منزله قائلة : « انه دقيق الذهن ، رقيق القلب طيبه ، سليم الذوق ، جامع لصفات الرجل المحبوب ، وله فوق عواطف الرجل الشريف ذاكرة واعية » .

وكانت جوزفين شديدة الولع بالجوهرات وما اليها من الزخارف ، وكانت في هندامها بارعة الذوق كما كانت رقيقة العاطفة ، وقد بلغ من حذقها في اتقان هندامها ان كانت تبدو أملك للناظرين من أخت زوجها بولين وهي آية من آيات الجمال ، وكان ذلك سبباً لتلك الموجدة التي كانت الاخت تجدها على الزوجة .

كانت جوزفين كريمة اليدين ، سخية الطبع تغدق الهدايا على

حاشيتها ، وكانت تكثر من الهدايا لنسائها تخلع عليهن الثوب ولم تكن لبسته سوى مرة أو اثنتين ، وقد كثر ذلك حتى أصبحت الخلع تجارة رائجة تبيعه نساء الحاشية الى تجار من اليهود ، وكانت الاميرات يتسابقن الى شرائها من هؤلاء اليهود .

ولم تجد جوزفين مشقة في اتخاذ الهندام اللائق بمقامها وهي زوجة القنصل الاول ، اذ كان الشأن في عهد الجمهورية ان يحتذو حذو اليونانيين والرومانيين في أزيائهم .

غير أن نابوليون في عهد الامبراطورية كان حريصاً على أن يعيد إلى بلاطه أزياء وتقاليد لويس الرابع عشر والخامس عشر، يشتد في ذلك شدته المعروفة . وكانت جوزفين بالرغم من كونها ابنة الثورة ، ليست أقل منه سرعة في الانتقال الى حالها الجديدة ، فكانت في هندامها ملكة حقاً، وفي استقبالها ملكة حقاً لا تفرط في شيء من مظاهر الملك .

وأنشأ نابوليون طائفة جديدة من الاشراف كانوا قذى في أعين الاشراف العريقين، اذ كان يسوء هؤلاء اغفال شأنهم ورفعة جماعة كانوا من قبلُ سوقة أو لا خطر لهم .

أما علاقة نابوليون بزوجته فلا يدلك عليها أبلغ من الحادثة التالية : هم نابوليون بعمل من أعماله ، فأرادته جوزفين على أن يعدل عنه بحجة ان ذلك يوم الجمعة وهو يوم نحس ، فأجابها الامبراطور: « قد يكون ذلك في رأيك، أما أنا فان هذا اليوم أسعد أيام حياتي لانه يوم زواجي منك ! » .

جاء يوم التتويج ولا أدل على شعور جوزفين بخطره من

رسالتها إلي البابا بيوس السابع حيث قالت : « اني اشعر وقد أصبحت أمبراطورة الفرنسيين ، ان من الواجب علي ان أكون لهم أماً ، وماذا يقربهم الى قلبي اذا كنت لا أقدم لهـــم سوى الآمال ؟ ان الاعمال وحدها هي التي يحق للشعب ان يطالب بها من يتولون حكومته » .

كان يوم ٢ ايلول (دسمبر) سنة ١٨٠٤ يوماً مشهوداً فرغت له همم الباريسين وآل التويلري عامتهم وخاصتهم .

ازّينت جوزفين زينتها الكبرى : لبست الامبراطورة ثوباً من الحرير الابيض مطرزاً بالذهب وحلى صدره بالماس ، وفوقه رداء من القطيفة قرمزي اللون ذو نقوش ذهبية .

أما الجواهر فكان أهمها التاج والاكليل والحزام ، يوضع الاول في الحفلات الرسمية والثاني يوم التتويج ويُشد الثالث على خصرها ، وكلها مرصعة بالماس الوردي ، ويقال انه قد بلغت زنة عصبة الجبين وحدها تسعة وأربعين حبة .

ولبس نابوليون يوم التتويج ما لا يقل في قدره وجلاله عما ارتدته الامبراطورة من القطيفة البيضاء المطرزة بالذهب والازرار الماسية والجوارب الحريرية ، وكان رداؤه كرداء الملكة الا انه أثقل وزناً ، فقد بلغت زنته ثمانين رطلاً .

وقد قال نابوليون في ذلك لأمين سره مازحاً وهو يعرك أذنه : « حسن حسن كل هذا ولكن سنرى الحساب » .

كانت الكنيسة في أفخم زينتها ، وقد وقف نابوليون والى يساره الامبراطورة ترافقها الاميرات ، وعلى يمينه اخوته وكبير

مستشاريه وكبير أمناء خزائنه ، واستمرت الحفلة الدينية أربع ساعات عزفت الموسيقى خلالها أنغاماً وضعت خصيصاً ، وكان يؤديها ثلاثمائة عازف ، عدا رجال الموسيقى الجرمانيين . ووقف نابوليون وسط الحفلة وتناول التاج الامبراطوري ووضعه على رأسه . ثم أخذ تاج الملكة ووضعه أولا على رأسه بينما كانت الامبراطورة راكعة أمامه على قاعدة العرش ، ثم وضعه على رأسها . وما ان انتهت الحفلة ووضع التاج على رأسه حتى تجاوبت أصوات الهتاف : « يحيا الامبراطور ولتكن الامبراطورة مباركة » والناس في الخارج يكررون الدعاء ! ..

كانت جوزفين تستيقظ في الساعة الثامنة وتأخذ زينتها ، ثم تلقي نظرة على اثنتي عشرة صحيفة على الاقل، ثم تستقبل الخياطات والزائرين الذين لا تستقبلهم في غرفة الاستقبال . وتنتقل بعد ذلك الى غرفة الاستقبال حيث الوصيفات ومن تدعوهم لتناول الافطار . وتجلس عند الظهر الى المائدة ساعة على الاقل . وكان فطورها عند النهوض من النوم فنجان شاي مع الليمون ، ولم تكن تتغدى مع الامبراطور لكثرة مشاغله،وكانت تذهب بعد الفطور إذا كان الجو جيداً الى ماليزون أو القنص .

واذا لم تخرج الى النزهة استقبلت الزائرين ، يقدمهم الوصيف أو تقدمهن الوصيفة اذا لم تكن على معرفة بهم ، أما المعروفون فكانوا يدخلون اليها بلا دعوة ولا استئذان، عدا الحفلات الرسمية التي يتولى الدعوة اليها كبير أمناء الامبراطور .

ومن الغداء الى الساعة الرابعة كانت تستقبل اثنين أو ثلاثة

مــن الزائرين في مسكنها الخاص أو تستريح ، ثم تذهب الى مخدعها لتجدد ثيابها وهندامها وتستغرق في ذلك ساعة على الاقل بينما هي تطالع أو تتناول شيئاً من المرطبات ، فاذا كانت الساعة الخامسة لم تعد تستقبل أحداً لأنه وقت مجيء الامبراطور .

ومتى جاء الامبراطور أخذ يقلب خزائن ثيابها ومجوهراتها ليتخير لها ما يلائم ذوقه ، واذا وجد الامبراطور في ثيابها ما لا يعجبه صب عليها حبراً فتسرع جوزفين في استبدالها !

وتعود بعد ذهاب الامبراطور الى غرفة الاستقبال ، حيث يتوافد الاشراف والقواد وكبار الدولة من رجال وسيدات ، فتقضي الوقت في الحديث معهم أو اللعب ، الى ان يعود الامبراطور في الساعة التاسعة ولا يبقى هناك إلا ربع ساعة ، هذا اذا لم يبد له ان يلعب . وكان يختار اللاعبين من السيدات والويل لمن يلاحظ عليه له خطأ أو عبثاً ، وما أكثر ما كان يحدث له ذلك لانصراف ذهنه الى أعمال الدولة . ومتى انصرف الامبراطور انصرف الجميع .

كان أهم ما تُعنى به جوزفين في ماليزون هو الزهور ، فقد بقيت حريصة على ميولها الزراعية حتى بعد ان صارت أمبراطورة اذا كانت على علم صحيح بالنبات والتاريخ الطبيعي ، وفرنسا وأوربا مدينة لها بالكامليا . وفي ماليزون هذه كان يزورها الامبراطور بعد الطلاق فكانت تحسن لقاءه وتبقى معه في حديث ودي ساعات ، ثم تودعه حتى الرواق .

كانت جوزفين من حيث ملامح وجهها أقرب الى الجمال اليوناني ، حلوة المنظر ، تلوح كأنها على شيء من الجمود الا انها لا تلبث ان تظهر في طلاقتها ونشاطها وسمو أفكارها ورقة عواطفها، وكان من حلاوة صوتها ورقة نغمه ان نابليون لم يستطع مقاومة أثرهما في نفسه .

وحدث ان نابليون عند ما ازمع على السفر الى جرمانيا في نيسان (ابريل) سنة ١٨٠٩ ، أبى على الامبراطورة إلا ان تصحبه الى ستراسبورغ ، فتولاها الحزن الشديد ، فما تم الامبراطور ان أسرع بالعودة الى غرفة جوزفين وقال لها :

« لقد قمت طويلاً مقام الامبراطورة فعليك الآن ان تقومي مقام زوجة القائد ، اني سأسافر حالاً وعليك ان تصحبيني الى ستراسبورغ » .

ومن أقواله : « ان جوزفين تحسن النظر الى كل ما أحب ، وهي الملاك الحارس الذي يصلي طالباً سلامة زوجها ونجاحه ! »

ومن أقوالها هي : « ان ذلك الرجل الذي أدهش حظه العا وسما به إلى أسمى عرش ، ليعرف حق المعرفة اني لا أحب ولا أ سوى ما فيه مجده . وليذكر الذين يرمونني بالتهم اني في سبـ اخلاصي له ووفائي لحبه ، أغضبت من كبار اللائذين بـه من في وجودهم خطر عليه . ولو أني أغضيت عنهم لأوقعوا نابليون في الهلاك . وكان اذا سخط على أحد من ضباطه في غـير وجه ، دافعت عنه وأجهدت نفسي للعدول بـه ، وقد قال لي مرة في شأن أحد هؤلاء :

– ان لي وحدي ان اتخذ الرأي في التخلص منه والقضاء عليه .

– لك الحق . لك الحق . ولكن هذه اللهجة لا تتفق وطبيعة نفسك الكريمة .

– ومن يعارضني ؟

– انت ، يا نابوليون . ان ذلك يسلح ضدك شجعاناً أنت في حاجة اليهم . حقيقة ان الرجل العظيم لا يخشى شيئاً ، ولكنه يأسر القلوب بعفوه ، ان أولى مهام الملوك وأقوى دعائم العرش هو العدل . »

هكذا كانت جوزفين تعطي للعدل والاحسان كل ميولها ، وبهذه الصفات استأثرت بقلوب جميع الاحزاب حتى قال عنها نابوليون :

« اني افتتحت الممالك وجوزفين تفتتح القلوب . »

وقد حذرته مرة الاخذ بآراء المتزلفين من أصحابه فقال : « اني أحذرهم جد الحذر. أنت زوجتي وصديقتي لا أريد سواك ، واني لأدوم سعيداً ما دمنا على وفائنا والويل لمن يفصم منا عرى هذا الود . »

بيد انه أفسح صدره في سنة ١٨٠٩ لوشايات المتملقين وكان هؤلاء يقولون له :

– لا بد من الانفصال عن جوزفين ، ان كريمات القياصرة ليفخرن بأن يأتينك بوريث يحفظ اسمك إلى الابد !

لم تلد جوزفين لنابوليون وريثاً من دمه فكان ذلك شر ما

تذرع به أعداؤها . ولم يكن الطلاق بينهما ليقع لولا تألب أسرة بونابرت وخدمهـــا وأتباعها ، ممن لم تستطع الامـــبراطورة اجتذابهم اليهـــا . ولقد أطلقوا ألسنتهم بالشر ضدها مذ كان نابوليـــون في مصر ، وأكثروا من الاراجيف ، واختلقوا عليهـــا الافتراءات الكاذبة .

كان جينو عماد تلك الحملة ودساسها الخبيث ومروجها الاثيم . وظلت رسائل نابوليون اليها من مصر على عهدها من المحبـــة والثقة .

غير ان سموم الاراجيف داخلت قلبه حتى كان منه اليها تلك الرسالة المشؤومة التي توجه اللوم إليها وتظهر الريبة فيها .

ونقتطف من ردها عليه العبارات التالية :

« أيمكن ذلك يا صديقي ؟ هل الرسالة التي وردت إليّ أخيراً هي رسالتك؟ اني لا أكاد أصدق هذا الخطاب إذا قرنته برسائلك الحلوة . عيني ترى انها منك ولا شك ، ولكن نفسي تأبى أن تصدق بأن نفسك هي التي أملته عليك . ان شر ما يؤلمني منهـا انها لا بد قد آلمتك .

« اني أجهل بماذا أسأت الى ذلك العدو اللدود الذي يعمل على خرابي ويعكر طمأنينتك . لا بد ان تكون هناك أسباب قوية حملت ذلك العدو على ألعابه وإلصاق أشنع التهم بي يسعى بهـا إلى من أخلص لي الحب والوفاء ومنحني ثقته . »

ولعل هذا الخطاب المؤثر لم يصل إلى نابوليون إلا بعد عودته الى باريس حين كانت جوزفين غائبة ، ولم تكن لتبرح باريس لولا

شوقها الشديد للقائه ، فأسرعت إلى استقباله ولكنها أخطأت طريقه فوصل قبلها . وهناك اجتمعت به والدته واخوته وأقاربه يلحون على مسمعه بأفظع التهم يفترونها على تلك الامبراطورة الفاضلة البريئة .

لقد ساء الجميع صفح نابوليون عن جوزفين ، فهم يبغضونها واخوته يطمحون الى امتلاك ما أحرزت من ملك ، ويعملون لتخفيف سلطانها على قلب الامبراطور ، لا سيما وقد شاع انه يعتزم توريث ابنها أوجين دي بوهرنيه عرش الامبراطورية، فكان ذلك كله مدعاة للتعجيل في طلاقها منه .

كانت جوزفين تعرف ان نابوليون لو ترك وشأنه لما فكر في الانفصال عنها ، إلا أن القوم تألبوا ضدها، وكان شرهم ذلك الثعبان فوشه وزير الشرطة الذي لم يكن يعبد سوى مصالحه ، يسلك اليها كل مسلك ويميل مع كل حزب ، يتقلب من جانب إلى جانب في غير شيء سوى تحقيق أمل يرجوه ، وقد بلغ من شأنه عند الامبراطور انه كان يدخل عليه في مخدعه . وكثيراً ما نصحت الامبراطورة لزوجها بابعاده فأبى وأبقى عليه ، إلى ان وضحت له خيانته وتأكد من انه يراسل انكلترا بواسطة جواسيسه فأقصاه ولكن بعد ان قد وقع القدر .

كان فوشه يلح على الامبراطور بالطلاق من جوزفين ، وحين رآه متردداً تقدم إلى الامبراطورة ذاتها قائلاً لها انها ما دامت قد علمت برغبة الامبراطور في الانفصال عنها فأولى بها ان تتقدم هي به الى الامبراطور . فأنكرت جوزفين ذلك في استياء

عنيف .

وكان فوشه هــذا على رأس المؤامـرة التي أدت إلى تنازل نابوليون عـن العرش لأول مرة . وقال عنه نابوليـون وهو في سانت هيلانة : « ان فوشه لئيم شديد التلون . كاهن ومن رجال الارهاب ، وعامل في المذابح . رجل يختلس أسرارك في هـدوء وفي رياء . »

وقبل ان يقدم نابوليون على مصارحة جوزفين بعزمـه على الطلاق ، أخذ يشير إلى غايته تلميحاً ، وكانت تكظم غيظهـا وطوراً تحتج بأشد ما لديها من قوة وتريه عدم وفاء حـاشيته وتربص الملتفين حوله به ، وتنذره بأن يوم انفصالها عنه سيكون يوم ابتداء نجمه بالأفول .

مرت الايام على ما يشبه السكينة ، ثم فاجأها يوماً بعـد أن تناولا الغداء بعزمه صراحة . فصعقت لهذا النبأ حتى أغمي عليها ، فاستعان نابوليون بالمسيو بورين على حملها إلى مخدعها .

ومما زاد نكبتها بـلاء ، ان الامبراطور أبقى لهـا لقب الامبراطورة ، وجرى أمر الطلاق على انه اتفاق بينهما ، فكان لا بد لها من الظهور في الحفلات الرسميـة . وكان شر أيامهـا يوم حفلة ذكرى التتويج إذ تراءت للمحتفلين في زيهـا الامبراطوري والابتسامة على شفتيها والكآبة ملء فؤادها . وقد بدا ألمها هذا الالم النفسي في قولها لبورين :

« تعلم اني جعلتك موضع أسراري ، وأطلعتك على ما كنت أعانيه من مشاق . لقد قمت بواجبي كزوجته إلى النهـاية »

وهأنذا أحتمل صابرة صنوفاً جديدة من الآلام . »

وبعد ذلك بثمانية أيام عهد نابوليون إلى شاباني في مواجهة الامبراطور اسكندر ، إذ كان عزمه الاول ان يصاهر حليفه امبراطور الروسيا لا النمسا .

وجاء يوم ١٥ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٩ فعقد المجلس الامبراطوري وتلا نابوليون فيه كلمته المعروفة في الطلاق ، وأخذت جوزفين تقرأ ما أملي عليها من القبول ، وإذ لم تستطع متابعة القراءة أخذ ابنها أوجين اقرارها وتلاه عنها .

وفي اليوم التالي أعلن الطلاق رسمياً في التويلري ، فتليت وثيقة الطلاق أمام الجميع ، ونهضت الامبراطورة تعلن موافقتها عليه وهي تبكي ، وانسحبت على الاثر تخلو بنكبتها وأعداؤها يسخرون منها !

في مساء ذلك اليوم كان نابوليون في غرفته وخادمه على وشك الانصراف ، وإذا بالباب يفتح وتظهر على عتبته جوزفين ينفس تملكها الحزن ، وفي ثوبها الملكي الوضيء ، فحدقت بالرجل الذي ظل وقتاً طويلاً رمزاً لحياتها وسعادتها ، ثم غلبها الحب فترامت بين ذراعيه وصاحت بصوت يجمع بين الحنان والالم :

« زوجي ! زوجي ! »

غلب نابوليون على أمره وأومأ للخادم بالانصراف ، وبقي الزوج والزوجة منفردين في تلك الساعة الاخيرة من ساعات حياتهما المشتركة ، ثم انصرفت جوزفين إلى مخدعها ودخل الخادم ليطفىء النور ، فإذا بنابوليون يخفي وجهه بين المساند

وينتحب .

وفي الصباح ودعت جوزفين قصر التويلري والخدم بين البكاء والنحيب ، وانسحبت الى مقرها في ماليزون .

غير أن أسرة بونابرت لقيت جزاءها من الهوان يوم حفلة زواج الامبراطور من ماري لويز ، وتجرع ألد أعداء جوزفين أمـــر كاسات الصفاء، ذلك ان والدة نابوليون وملكات هولاندة ونابولي والاميرات اليزا وبولين والملكان لويس وجيروم كانوا في اجتماع يتحدثون عن حفلة الزواج المقبلة ، واذا بمورا ملك نابولي الجميل يدخل عليهم في أفخر ثياب وأجملها فتصايحوا به قائلين: « ما أجمل ثيابك ! »

فأجابهم مورا : « واني لمعجب بنفسي » .

وأبصر نفسه في المرآة التي كانت الأميرة بورغيس تستملح فيها جمالها . ثم قال :

« هل تعلمن أيتها السيدات الجميلات انكن ستتعرضن لسخرية أوربا ؟ »

وكانت بيده ورقة مطبوعة فقلن جميعهن في نفس واحد : « ماذا ؟ »

فأجابهن مورا بقوله : « أقرأن يا سيداتي الملكات واعلمن جميعاً وأنتن الملكات انكن غداً في كنيسة اللوفر ستبقين طول مدة الاحتفال حاملات ذيل رداء الامبراطورة كنتكن » .

قالت احداهن : « لن يطلب الينا نابوليون احتمال اهانـــة كهذه ؟ »

فأجاب جيروم ان ذلك ليس طلباً إنما هو أمر . وهذا ما حدث فعلًا !

كانت جوزفين اذا جرى أمامها ذكر ماري لويز تحرص الحرص كله على ألا تفوه في حقها بكلمة تؤاخذ عليها . الا انها كانت تقول : « ان يحبها . لقد ضحى بكل شيء في سبيل سياسته أما زوجته الأولى فستظل موضع ثقته » .

ولم تكن جوزفين لتخدع نفسها بهذا القول ، إذ كانت حقاً موضع احترام نابليون توافيها رسائله ، ولا تنقطع عنها زياراته ، ولا ينفك عن السؤال عنها ، بحيث رأى الجميع أن في احترامها رضاء الامبراطور !

ولما وضعت ماري لويز ابنها من نابليون أظهرت جوزفين عطفها ، بأن أهدت الى الطفل لعبة جميلة سرّ بها نابليون، ولكن ماري لويز أظهرت استياءها لأنها كانت تكره أن تذكر تلك التي سبقتها الى مقام الامبراطورة، وكثيراً ما كانت تنهي زوجها عن زيارتها .

على أن نابليون بقي يختلس الفرص لزيارة جوزفين ، وكان يتنزه معها في الحديقة ، ويفضي اليها بأعمق أسراره واثقاً بصدقها واخلاصها .

وكانت جوزفين تقضي أيامها بعد الطلاق بين مالميزون وقصر نافار ، تواسي الفقراء وتحسن الى اللاجئين اليها .

وقبل سفر نابليون المشؤوم الى روسيا ، فاجأ الامبراطورة جوزفين بزيارته على غير علم ، فاذا بها في مخدعها تطالع عبارة

ديوقلتيان عن تنازله عن العرش :

« يا من رأيتموني جالساً على العرش تعالوا وانظروا الخس الذي زرعته بيدي » .

فدهش نابوليون لهذه المصادفة وقال : « لعلي سأنتهي الى هذه الحال فأفخرُ بغرس حديقتك الذي أغرسه بيدي . ويأتي الناس من جميع الامم ليشاهدوا نابوليون الفيلسوف » !

فأجابته جوزفين : « ذلك خير وأحسن اذ نكون سعداء ، ولكن لك زوجة وابناً . وكل ما أرجوه هو ان أعينك بنصحي . أما اذا قلب لك الدهر ظهر المجن وتألب عليك أعداؤك فأتِ يا بونابرت الى ملجأي المحبوب » !

وكانت جوزفين تتمنى ان ترى ابن نابوليون ، فأمر الامبراطور مدام دي مونتسكيو أن تحمله الى البتي تريانون ، وهناك ذهبت جوزفين للقائه . فما ان أبصرته حتى غمرته بحبها وداعبته في رفق وحنان قائلة :

« الآن أغتفر لتلك المرأة التي اغتصبت مكاني اعتداءها ، وأغتفر للامبراطور كل اخطائه في سبيل سعادته الابوية » .

ومن غرائب الاقدار ان العرش لم يأل الى ابن نابوليون بل الى ابن هورتنس بنت جوزفين زوجة لويس بونابرت ، كأن العناية ارادت ان تقول للناس : لا تفعلوا الشر رجاء لقاء الخير !

ومن أقوال نابوليون لجوزفين عند ما اجتمعت عليه المصائب : « كلما ضاق صدري يا جوزفين شعرت بالحاجة الى صديق حميم أطلعه على ذات نفسي وأبثه حزني ، والذي أدهش له ان الناس يتعلقون

بدرس كل علم إلا علم السعادة . وإني لا أجد هذا العلم إلا في العزلة ، ولعلي واجده هنا » !

وبعد هزيمة نابوليون ودخول الحلفاء باريس ، أبدت جوزفين من المروءة ما يشهد لها بالفضل ويخلد لها الذكر الحميد ، ذلك انها اعتزمت ان تقف الى جانب زوجها لتموت معه أو تنفى معه . وشتان بين هذا وما فعلته ماري لويز التي غادرته في غير عطف ولا رفق ، كأن ابنها ابن جلف من الجرمانيين لا ابن رجل لا يقل عظمة عن قيصر أو اسكندر .

وبينما كانت جوزفين في قصر نافار ، جاءت رسالة من الوزير تاليران يبلغها بها رغبة الامبراطور اسكندر وملك بروسيا في مقابلتها ، فاستقبلتهما مرحبة ، وبعد ان أثنيا عليها وامتدحا عهدها ، وأسفا لخروج نابوليون عن مشورتها حين كان في وسعه ان يظل خير الملوك على خير مملكة ، لم يكن منها إلا أن لفتت أنظارهما الى الجيش الباسل وما قام به من الاعمال العجيبة وعطفها على ذلك الاسير الجليل !

ولم تنقطع عن جوزفين رسائل بونابرت وهو في منفاه بجزيرة ألبا ، وكلها تنم عن يأس من الحياة وعن شوق لرؤية جوزفين .

وكانت اذا تكلمت عنه قالت: « لقد كنت موضع أسراره ، لم يخف عني منها سوى ذلك الرأي الذي اجتلب عليه النحس ، ولو علمته لدفعته عنه » .

كان يوم ٢٩ ايار (مايو) سنة ١٨١٤ من أيام الربيع الجميلة ، الزهور تزهو بجمالها ، والهواء يبعث بنسماته المنعشة ، ولكن

جوزفين كانت تحتضر ، وكانت آخر كلماتها :

« جزيرة ألبا .. نابوليون » !

ثم صمتت الى الأبد .. وحزنت أوروبا كلها لموت هـــذه الامبراطورة العظيمة ، وبكاها أصحابهـــا وأعداؤها من أسرة بونابرت ، فذهبت وفية لزوجها كما عاشت وفية له .

الملكة فيكتوريا

"١٨١٩ - ١٩٠١"



إن أعظم من اشتهر في تاريخ انكلترا من الملكات هما اليزابيت وفيكتوريا ، وكانتا على تناقض بيّن في طباعهما وشخصيتيهما : اليزابيت ملكة غير متزوجة ، أنانية فخورة متطرفة ، لا يهمها سوى شخصها ، وفيكتوريا والدة رءوم ، شديدة العطف على أسرتها ، وخير من تمثلت في شخصها فضائل الزوجية والأمومة .

وقد شغلت حياتها القرن التاسع عشر كله تقريباً ، وشهدت انتقال انكلترا من ظلمة العصور الوسطى الى الحضارة الحاضرة ، فلا غرابة اذا عد عصرها ازهى عصر عرفته المملكة الانكليزية .

ولدت فكتوريا يوم ٢٤ ايار (مايو) سنة ١٨١٩ وهي حفيدة جورج الثالث ملك انكلترا ووالدها ادوارد دوق كنت رابع أولاد الملك ، ووالدتها فيكتوريا شقيقة دوق ساكس كوبرج وأرمل أمير لينينجن . وقد توفي والد فيكتوريا وهي في الشهر الثامن من عمرها واعد للملكة العتيدة قصر كنسنجتون ، فاقامت فيه تحت رعاية والدتها دوقة كنت .

كان والد فيكتوريا رقيق الحال كثير الديون اذ لم يكن مرتبا له سوى سبعة آلاف جنيه لا تكاد تقوم بأوده ، وقد

توفي على اثر التهاب بالرئتين وكتب وصيته يوم ١٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٢٠ .واصبحت زوجته ارملة للمرة الثانية، وكانت لها ابنة من زوجها الاول تدعى فيدورا .

لم تمض على وفاة دوق كنت ستة ايام حتى توفي الملك جورج الثالث ، وخلفه جورج الرابع على العرش مدة ثماني سنوات . وقد وقعت بعد شهر من وفاة الملك العجوز تلك المؤامرة التي اريد بها اغتيال جميع وزراء انكلترا واضرام نار الثورة، ولكن نبأها بلغ اسماع الوزراء وقبض على الكثيرين من المتآمرين وحكم عليهم بالموت .

شبت فيكتوريا وكانت تكثر من اللعب مع اختها فيدورا ، تركب الخيل ولا تمل النزهات ، والجميع يجاملونها ويتلطفون اليها ، ولا يحرص على تقويمها سوى والدتها والدوقة ، ثم عهد الى المربية فرولين لهزن بتربيتها فآنست من الاميرة فيكتوريا فطنة وعناداً ، فاخذتها باللين والتحبب حتى ملكت قيادها وسارت في تربيتها على خير ما يرام .

كانت فيكتوريا في السابعة من عمرها عند ما زارت جورج الرابع لاول مرة مع والدتها واختها فيدورا ، وكان الملك جاف الطبع غير محبوب من شعبه .

ومر الملك يوماً بأسرة الدوق كنت وهو في سبيل نزهته للصيد فدعا الاميرة فيكتوريا واختها الى صحبته، ولم يرق الوالدة هذا الطلب ولكنها لم تجد بداً من الاجابة ، فصحبته الفتاتان ، وبينما كان القوم منشغلين بصيد السمك ، سأل الملك فيكتوريا : « أي

نشيد احب اليك ؟ » فأجابتــه على الفور : « الله يحمي الملك ! » فدهش الجميع لبداهة الفتاة على حداثة سنها .

وحدث ان قرر البرلمان حق فيكتوريا في وراثة العرش، وأنها الوريثة المنتظرة ، واعتمد عشرة آلاف جنيه سنوياً لتصرف على وريثة العرش . غـير أن والدتها كانت تحرص الا تعرف ابنتها ذلك. وقد بقيت فيكتوريا تمرح في لهوها ونزهاتها بحرية، وكانت تقول : « اني أعمل ما اريد » وأني لفرحة لذلك » .

وظلت فيكتوريا تتلقى العلوم والموسيقى والرقص عـن مربيتها لهزن ، والدين عن والدتها ، الى ان جاءت سنة ١٨٣٠ فتوفي جورج الرابع وتولى العرش اخوه وليم الرابع ، وكان هذا رجلًا ذكياً اصلح الكثير مما افسده أخوه ، واعاد للتاج هيبته . وكان كثير العطف على فيكتوريا بالرغم من بغضه لوالدتها . وقد قالت عنه الاميرة وكانت في الحادية عشرة : « انــــه لغريب الاطوار حقاً غير أن نياته تـُفسر على غير وجهها » .

وحدث أن خالها الامير ليوبولد غادر انكلترا ليكون ملك البلجيكيين . فدأبت فيكتوريا على مراسلته ، ومن اقوالها عنه : « انه ابي اذ لم يكن لي اب » .

وعندما بلغت فيكتوريا الثانية عشرة رؤي من الخير اطلاعها على حقيقة امرها ، فتقدم اليها معلمها الدكتور دافيس وطلب اليها ان تكتب سلالة العائلة المالكة . فاخذت الفتاة في ترتيب تسلسل الملوك والورثة ، وما انتهت حتى صاحت دهشة :

«اماه، اني لا ارى بعد العم وليم من وريث للعرش الا انا» !

ولما قيل لها ان هذا هو الواقع فكرت تفكير من ليس في سنها وقالت في تؤدة وروية :

« انه لأمر عظيم قد يجد فيه الاطفال مفخرة ولكنهم لا يعرفون ما فيه من صعاب، مقام جليل ولكنه مقام مسؤولية ».

ثم قالت بلهجة حازمة :

« سأكون ملكة صالحة » !

كانت فيكتوريا في الرابعة عشرة من عمرها اذ زارها من جرمانية أبناء خالتها والدوق ورتنبورغ ، وكان من عادتها ان تسجل في دفتر يومياتها ما يعن لها من الخواطر . وقد سجلت فيها يومذاك اعزازها ومحبتها لهؤلاء الشبان : « عزيزي الكسندر . عزيزي ارنست » . ولكن عند ما زارها ابنا خالها ارنست ، وهما الاميران ارنست والبرت ، زادتها اعزازاً ومحبة ، وشد ما كان اعجابها بالبرت ، فهو رجل رقيق القلب ذكي العقل ، فكه العبارة ، في جمال رائع ، وأسلوب خلاب ، ولم يفارقها حتى احتل مكانة كبيرة من قلبها !

وكانت الدوقة كنت قد اصدرت اوامرها الى رجال الجندية والبحرية بأن يطلقوا مدافعهم تحية لها كلما مرت بيختها مع الاميرة فيكتوريا ، فساء الملك ذلك وامر الا تطلق المدافع الا للملك الحاكم ورجاله . ومن ثم علم انها وضعت يدها على سبع من مباني قصر كنسنغتون بلا اذن منه ، فغضب لذلك غضباً شديداً وانتهر الدوقة في جمع حافل، وكانت فيكتوريا إلى جانبها فأجهشت في البكاء .

كانت فيكتوريا في السابعة عشرة من سني حياتها ، وكان غاية ما يتمناه الملك ان يعيش حتى تبلغ السن القانونية وهي الثامنة عشرة ، فلا تكون والدتها قيمة عليها في الملك فكان له ما تمنى .

جاء ملك البلجيك ليوبولد لزيارة انكلترا ، وبالرغم من اغضاء الملك وليم عنه ، فقد سر سروراً عظيماً إذ رأى ابنة أخته قد بلغت أشدها ، وهي على عهدها مولعة بالموسيقى والشعر والفروسية والرقص ، في شباب ناضر وصحة زاهرة ، وكان يكثر من تزويدها بنصائحه وارشاداته ومعلوماته فيما يتعلق بالملك وسياسة الأعمال .

ومرض الملك وليم وساءت حاله ، فأسرع اليه رئيس أساقفة كانتربري وأدى له المراسم الدينية ، لأن الملك كان مؤمناً ديناً حقاً . وفي صباح ٢٠ حزيران (يونيه) سنة ١٨٣٧ لفظ النفس الأخير .

وأسرع رئيس الأساقفة وكبير الأمناء إلى قصر كنسنغتون ، وكانت الأميرة لا تزال نائمة ، فأيقظتها والدتها وركع أمامها كبير الأمناء اللورد كونينغهام وأبلغها النبأ ، وأفضى اليها رئيس الأساقفة بتفصيلاته ، وهكذا أصبحت فيكتوريا ملكة على انكلترا .

وزارها عند الافطار ستوكر صديق والدها وخالها ، وكتبت إلى أختها فيدورا والى ملك البلجيك ، وفي الساعة التاسعة تقدم اليها رئيس الوزراء اللورد ملبورن في ثيابه الرسمية وقبل يدها . وفي الساعة الحادية عشرة حضرت الملكة فيكتوريا أولى جلسات

مجلس الوزراء وهي ترتدي ثوب الحداد ، في أبهة وجلال وهيبة ، وتلت المراسيم بهدوء لم يكن منتظراً من فتاة مثلها ، فأدهشت الجميع وظفرت بإعجابهم .

وسارت إلى والدتها بعد انتهاء الجلسة وقالت لها :

— والآن يا والدتي هل أنا الملكة حقاً ويقيناً ؟

فأجابتها الدوقة : انك ترين ان الأمر كذلك !

— إذاً يا والدتي العزيزة أرجو ان تسمحي لي بأول رجاء أوجهه اليك بصفتي ملكة ، وهو أن تدعيني لوحدي ساعة !..

والواقع ان الملكة الشابة قد استقلت استقلالاً تاماً بنفسها ، ولم يكن لوالدتها من تأثير عليها سوى الحب البنوي ، وهي لا تسمح لها بالتدخل في أي عمل من أعمالها .

وقد قال عنها شالس جرفيل في ذلك الحين :

« ان الملكة على أكمل ما يكون ، السذاجة والطبيعة والفطرة السليمة وامتلاك النفس والشمم صفات جعلتها موضع الاعجاب والمحبة . كل من حولها يحبها ويهابها . انها والحق يقال أمتن وأبهج وألطف ملكة في العالم ! »

وكان الاحتفال بتتويج الملكة يوم ٢٨ حزيران (يونيه) سنة ١٨٣٨ ، وقد احتشدت الخيالة في أبهج زي ، وازدحم الناس في سرور وغبطة لم يسبق لهما مثيل ، وجاءت الملكة في ثوب من القطيفة القرمزية المطرز بالذهب ، وعلى رأسها عصابة ذهبية ، يحلي جيدها الوسام الأكبر ، يتقدمها ثلاثة سيوف رمزاً للعدل والدفاع والرحمة ، ويحمل ذيل ثوبها ثماني عذارى من الأسر الكريمة في

ثياب فضية على رؤوسهن الورود . ولما دخلت الملكة الكنيسة تقدمت إلى العرش ، وركعت برهة بخشوع ، ثم تقدم رئيس الأساقفة وتوجه بها الى الزوايا الأربع منادياً :

«أيها السادة، إني أقدم لكم ملكة هذه المملكة، فهل تقسمون لها يمين الاحترام ؟ »

وكان جواب الجميع على سؤاله :

« لتحي الملكة فيكتوريا ! »

وكان اللورد ملبورن رئيس وزارتها ، وكان مرشدها الحكيم، على انها بالرغم من صداقتها له فقد كانت تقسو عليه في بعض الاحيان، وقد بقي صديقها الملازم لها سنتين متواليتين خوفاً عليها من تأثير سكرتيرها الخاص . وكان يشتغل معها في الصباح ، ويرافقها في نزهتها بعد الظهر ، ويتناول العشاء معها ، ولم يفتر لحظة من الوفاء لها .

وكانت الملكة تعرف قلة خبرتها في الامور ، غير انها كانت توجه الاسئلة الى الوزراء ثم تتمهل في إبداء رأيها تاركة لوزرائها حرية العمل . وكان خالها ليوبولد يكثر لها من النصح في جميع الشؤون ، فكتبت اليه شاكرة قائلة انها تطلب اليه رأيه متى احتاجت الى ذلك . وقد عين لها اللورد ملبورن وصيفاتها، والتف حولها رجال حزب الهويج ، وكانت الملكة وأسرتها من هذا الحزب ، فكان طبيعياً ألا تحب جماعة التوري ، وألا تعرف من رجالهم أحداً ، فكان ذلك سبباً لمضايقتها فيما بعد .

ولما اجتمعت بالبرلمان قرر لها مبلغ ٣٨٥٠٠٠ جنيه خصصت

منه جانباً لتسديد ديون والدها .

اقبلت فيكتوريا على مهمتها الجديدة بحماسة وغبطة، تجد حيناً وتلهو حيناً،وتغتنم فرص الحفلات الرسمية فترقص فرحة مسرورة، وقد كتبت في يومياتها :

« اني سعيدة بالرغم من كثرة مشاغلي ، اتلقى الكثير من قرارات الوزراء غير اني أجد في ذلك مسرة وغبطة » .

لم تكن الملكة لتجد غنى عن وزيرها اللورد ملبورن ذلك الشيخ الاشيب . ولما انتصر حزب التوري وتولى ممثلوه الحكومة كان لزاما عليها ان تفارق حكيمها ، فبكت لفراقه بكاء مراً . وبعثت الى الدوق ولنجتون فأوصاها باستشارة اللورد بيل ، ولم يفلح هذا اللورد الحجول في اكتساب عطف الملكة ، وأشار عليها بضرورة الاستعاضة عن وصيفاتها بغيرهن من أنصار حزب التوري ، فأبت الملكة ذلك، وامتنع اللورد بيل عن زيارتها لبقاء زوجات رجال من حزب الهويج في حاشيتها ، وسرت الملكة بعودة وزيرها اللورد ملبورن الى مقامه بجانبها .

لم تبق فيكتوريا بعد ان قضت سنتين في الحكم مع وزرائها ، تلك الفتاة الساذجة ، وقد تعلمت كثيراً،واختبرت كثيراً. ولذلك أقلقتها رغبة ابن خالها العزيز البرت في زيارة القصر . وكان البرت قد أتم دروسه في الجامعة ، وطاف أوربا مع البارون ستوكمر الذي كتب اليها غير مرة يمتدح صفات الامير . على ان الملكة أبلغت رئيس وزرائها ألا رغبة لها في الزواج، وكتبت الى خالها ليوبولد ألا رابطة ولا عهد بينهما . غير ان البرت وأخاه ارنست

وصلا يوم ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) وكان همّ البرت أن يبحث الامر مع فيكتوريا إذ لم يعد يطيق الانتظار .

وكان اللقاء مفاجأة له لأنه لم يأنس منها ما كان يعهد فيها من الاعجاب به . كانت تحادثه طويلًا ، وترافقه في النزهة على الجياد، وترقص معه في الحفلات ، فاذا بها على غير عهدها الاول .

ولكن لم يمض على وصول البرت أربعة أيام حتى بعثت اليه فيكتوريا تستدعيه ، وجلسا منفردين فسألته اذا كان يوافق على الزواج منها ، ولم يكن له طبعاً ان يتقدم اليها بمثل هذا السؤال وهي الملكة. فكان جوابه العناق ثم قوله هامساً : « اني لأكون سعيداً » .

وفرح الجميع لهذا التعاقد ، ولما طلبت الملكة الى المجلس ان يقرر لزوجها راتباً قدره خمسون ألف جنيه ، أبى حزب التوري عليها ذلك ، وأنقص المبلغ الى ثلاثين ألفاً ، فأسخط الملكة هذا العمل وقررت ألا تدعو اللورد ولنجتون الى حفلة العرس ولكنها عدلت عن رأيها وأرسلت الدعوة اليه .

وحين تم عقد الزواج في ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٠ ، انطلقت الملكة فيكتوريا والامير البرت الى قصر وندسور، وقد منح لقب الامير وكونسورت، وعهد اليه بمهمةسياسية شاقة. وليس في دستور انكلترا شأن لزوج الملكة . وقد شعر البرت انه ليس السيد في بيته ، وان لهزن والوزير الاول يوجهان زوجته وهي خاضعة لهما . ولم يكن الامير في الواقع الا أجنبياً غريباً . وكان رقيقاً لطيفاً مع أصحابه ، الا انه كان جامداً إذا لقي جمهور

الناس . وكان ستوكمر صديقه الملازم له، فكان طبيعياً ألا يروق ذلك الملكة.

وقد بدا شيء من التباين في ميول الزوجين : هو يحب الخلاء وهي تحب لندن . وهو يميل الى السكينة وهي قد ترقص حتى مطلع النهار . وهو يريد أن يجمع اليه العلماء والفلاسفة وهي تأبى الاهتمام بهم .

وجاءت وزارة التوري مرة اخرى، فكان لا بـد من ابعاد ملبورن ، فانفرج أمام الامير باب للتقرب من الملكة . أبعدت نساء الهويج فقام مقامهن ، وانسحبت البارونة لهزن فحل محلها . وهكذا لم تجد الملكة حولها عوناً ولا مشيراً، فبدت لها حاجتها الى زوجها .

وقبل أن تـلد الملكة أقيم البرت وصياً اذا توفيت الملكة . ووضعت فيكتوريا ابنتها البكر ودعتها باسمها . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤١ وضعت ولي العهد الامير اوف ويلس . فتمت غبطة الملكة واشتد حبها لزوجها ، فأخذ يسعى لاصلاح ذات البين بينها وبين والدتها دوقة كنت ، فاجتمعت هذه مع ابنتها في قصر وندسور، وهنا شعرت فيكتوريا بالسعادة حقاً ، وسجلت ذلك في يومياتها، وأصبح حبها لزوجها شغفاً، فهي تجد فيه كل شيء ، ولا يسرها شيء مثل ملازمته إياها . وقد قالت يوماً للادي ليتلتون : « ان الملكة امرأة سعيدة » .

فتح البرلمان وكان لا بـد لها من العودة الى قصر بكنغهام ، ولكن الملك لويس فيليب ملك بروسيا وملك ساكسونيا كانا في

زيارتها، وكانت الحفاوة بهما بالغة أقصى حد. وقد ردّت فيكتوريا وزوجها الزيارات الملكية، وسرّت جداً بمشاهدة موطن زوجها (جرمانيا) وكانت موضع حفاوة الجميع، ثم زارت بلجيكا وكان سرورها عظيماً برؤية خالها.

أما شأنها في الاعمال السياسية فكانت تجادل الوزراء بشدة فيما لا تراه موافقاً، مع الحرص على ألا تعارض أمراً أجمعوا عليه. وكانت تعنى عناية خاصة بألا يكون خلاف بين مجلس اللوردات ومجلس الاعيان..

وكان اللورد بالمرستون حملاً ثقيلاً على كاهل الملكة، اذ كان رغم شهرته الواسعة ميالاً لاقتحام المخاطر، وهو الذي دفع انكلترا للوقوف الى جانب الاتراك في حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٦ وبعدها نعمت انكلترا بالسلام أربعين سنة.

غير ان حرب القرم كشفت عن تضعضع الجيش الانكليزي وسقوط هيبته في نظر أوروبا، إذ هلك من الانكليز خمسة وعشرون ألفاً، على انها كانت سبباً لنهوض السيدة فلورانس نايتنجيل بعملها العظيم في مواساة الجرحى في الحروب ونشوء جماعة الصليب الأحمر. وكذلك كانت الحال في المياه الصينية حيث دام النزاع من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٦٠، ولم تكن غايته تجارة الأفيون كما قيل، بل المسألة على ما أوضح الضابط اليوت في رسالته الى اللورد بالمرستون: «المعضلة الواجب حلها هي فتح الأبواب لتجارة شريفة مع الامبراطورية أو ترك السواحل لتجارة غير مشروعة قد تنقلب الى لصوصية.» وفي سنة ١٨٤١

دخلت هونغ كونغ تحت حماية انكلترا وتولى حكمها السير هنري بوتنغر . وفي ظل هذه الحماية حل النظام محل القرصنة ونمت المدينة في ثروتها وسكانها .

وقد عمل البرت بمشورة صديقه البارون ستوكمر ، فتدخل في الشؤون السياسية ، وأصبح ذلك الغريب قوة ذات شأن في انكلترا ، وهو الذي فكر في ذلك المعرض الدولي الذي أقيم في هايد بارك أول ايار (مايو) سنة ١٨٥١ . وكان نقاده كثيرين في أول العهد، ولكن هؤلاء النقاد عادوا إلى الثناء عليه والاعجاب به ، إذ رأوا أعماله وما أصاب من نجاح ، وكان مدعاة لسرور زوجته وملكته .

وبفضل الأمير البرت تم الصلح بين الملكة واللورد بل ، فعرفت فيه النبل والشجاعة والوطنية وسعة العلم والاضطلاع بالشؤون السياسية ، وبه عرفت للتوري فضلهم في خدمة البلاد . وبما ان البرت أصبح سكرتيرها الخاص فقد أبيح له حضور جلسات مجلس الوزراء ، فكان فيها عاملًا لا يمل العمل .

وكذلك قرب البرت بين الملكة ونابوليون الثالث الذي زارها مع زوجته الامبراطورة أوجيني . عجبت فيكتوريا مما يستولي على البعض من بغض أشخاص وأشياء لا يعرفون عنهم قليلًا ولا كثيراً .

أعجبت الملكة بضيوفها ، وكانت أوجيني على أبدع ما تفاخر به فرنسا من الأزياء، فضلًا عن رقتها وجمالها واعتدالها، غير أن هذا لم يكن ليبعث في نفسها شيئاً من الغيرة، ردت الملكة فيكتوريا

وزوجها الزيارة فألفت في فرساي كل مـا ألفته في وندسور إذ قالت يوماً : « لو ان كلبي الصغير هنا لظننت نفسي في قصري . » وما هي إلا ردحة من الزمن حتى فاجأها نابوليون بما كانت تشتهي ، فأحضر كلبها وإذ بها صبيحة يوم تراه يتمرغ عند قدميها فدهشت وسرت بذلك كثيراً . ومن أقوالها : « من يصدق اني أرقص الآن مع قريب لألد أعداء انكلترا واتخذه حليفاً » .

ووقعت تلك الحرب المشهـــورة سنة ١٨٧٠ بين الفرنسيين والجرمانيين وكانت نتيجتها سقوط نابوليون الثالث ، فآوته هو وزوجتـه ، الملكة فيكتوريا كما آوت أسرة فيليب ، وأكرمت وفادتهما .

بلغ عدد أبناء وبنات الملكة فيكتوريا تسعاً ، تزوجت فيكي من البرنس فردريك وليم الذي صار امبراطور المانيا سنة ١٨٥٧ ، ثم تزوجت أليس من لويس أمير هيس ، ولكن الموت عاجلهـا فجاءت وفاتها عقب زواجها – على أثر وفاة والدها البرت – ضربة مؤلمة لوالدتها .

تزوج الأمير أوف ويلس من الأمـيرة الحسناء الكسندرا الدانمركية ، وتزوجت هيلانة من كرستيان أمـــير شلزوبج هولشتين ، والأميرة لويزا من المار كيز أوف لورن ، والأمـيرة بياتريس من الأمير هنري أوف باتنبرغ ، وتزوج الأمير الفريد دوق ادنبورغ من ابنة اسكندر الثاني امبراطور روسيا ، وتزوج الامير ليوبولد أصغر أبنائها قبل سن البلوغ .

كانت الملكة فيكتوريا في صحة تامة ، لم تعرف للخوف طعماً

غير انها في سنة ١٨٦١ فقدت والدتها ففقدت بموتها عوناً كبيراً ، ثم فجعت بزوجها قبل أن يتجاوز الثانية والاربعين من عمره فكان مصابها فيه عظيماً . ولقد كتب دزرائيلي عند موته العبارة التالية :

« لقد دفنا ملكنا يوم وارينا البرت التراب . فقد حكم الامير الجرماني انكلترا اثنتين وعشرين سنة بحكمة وهمة لم نعرفهما في ملوكنا » .

كان الامير أوف ويلس كثير اللهو قليل العناية بشأن والدته، غير ان موت والده ذهب بطيشه وهذب من طبعه وأثاب اليه رشده، ومن ثم جاء تعلقه بالاميرة الدانمركية الكسندرا وزواجه منها فاستوى رجلاً ناضجاً .

كانت الملكة فيكتوريا كريمة الطبع تغتفر اخطاء المخطئين إلا الرياء والغباء . ذهبت أيام سرور الملكة وقعدت بها واجباتها كوالدة وأحزانها كأرمل عن مهام المملكة ، فكره الشعب منها انصرافها وتفرغها لمهامها الخاصة وما كان يقوم به البرت . وقد نشرت خطبه وأقيم له تمثال في دهليز خاص لذكراه لم يكتب عليه سوى كلمة « البرت » .

على ان شؤون المملكة بالرغم من انكماش الملكة سارت في سبيل التوفيق والسعادة بفضل وزرائها ، وكانت المنافسة على أشدها بين غلادستون ودزرائيلي . وأحبت الملكة غلادستون بعد عداء وكان دزرائيلي رجلاً عظيماً في نظرها .

وفي سنة ١٨٧٤ عاد حزب التوري الى الحكم فانزوى معه

غلادستون.. وتولى صديقها الحكم فمنحته لقب لورد بيكونسفيلد وبذلك خف عبء الاعمال عن كاهلها وأصبحت تضطلع بأعمال مجلس الوزراء ، وأخذت تخرج من حين لآخر من عزلتها وتشهد بعض الحفلات وتزور المستشفيات ، وتستعرض الجنود ، وابتدع لها اللورد بيكونسفيلد لقب امبراطورة الهند .

قام ولي العهد برحلته الى الهند بين سنتي ١٨٧٥ — ١٨٧٦ فقضى أربع سنوات في طوافه تمكن اثناءها بلطفه وكرمه من استمالة نفوس الشرقيين ، وكان فيما تنشره الصحف عن رحلته ما لفت الانظار الى الشرق . رأى دزرائيلي بنظره الثاقب البعيد ضرورة العناية بالامبراطورية الشرقية ، وانه لا بد لانكلترا من رقابة شديدة على قناة السويس فعني بابتياع أسهم خديوي مصر ، وكان ذلك بدء تدخل انكلترا في شؤون الشرق وامتداد نفوذها في مصر حتى انتهى الى الاحتلال .

وبعد ثلاثين سنة من ترمل الملكة عاد اليها نشاطها وخذل غلادستون ،وتقلد منصب رئاسة الوزارة اللورد سالسبوري ففرحت الملكة به فرحاً عظيماً . وأصبحت الملكة موضع حفاوة الشعب وهتافه لها في زياراتها الى أدنبورغ وليفربول ، وفي سنة ١٨٨٧ أقيمت لها احتفال بالذكرى الخمسين لحكمها . فازدحم الملوك والامراء في دير وستمنستر ولم يكن هناك سوى التهليل والفرح بأم الوطن .

قضت الملكة ما بقي من أيامها متنقلة بين بالمورال وأودسبورن وونذسور وجنوبي فرنسا . ثم أولعت بجمع آثارها وآثار أبنائها وأحفادها ترصد كل أثر من لعب وثياب وهدايا وصور شمسية الى

غير ذلك . وقد أبقت على بذلة البرت أربعين سنة . وكان لزاماً عليها ان تبدل الثوب كل يوم وان تضع ماء في وعاء ، على طرف من العبادة .

كان مبدأ الملكة في الحياة : « العمل والسرعة » تحرص على ذلك أشدّ الحرص، والويل لولي العهد ان تأخر عن موعد العشاء .

وفي سنة ١٨٩٧ كان يوبيلها الماسي وأقيمت في كنيسة سان بول حفلة الشكر . وسار موكبها في لندن بين هتاف الجماهير : « لتحي امبراطورة الهند » وكان جواب الملكة : «ما أشد عطفهم علي ! ما أشد عطفهم علي ! » وقعت حرب جنوبي افريقيا في نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٠ فزارت ارلندة ، وكأن ما أنهكت به قواها مدة الأسابيع الثلاثة قد أثر في صحتها،فعشي بصرها وضعفت ذاكرتها ولم تعد تقوى على حمل أعبائها . عاد روبرتس منتصراً، وحادث الملكة يوم ١٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٠١ وكان يوم ٢٢ منه خاتمة حياة الملكة فيكتوريا . فبكتها انكلترا كلها .

وعملًا بوصيتها جرت مراسيم الجنازة حربياً، وحمل نعشها على السفينة البرتا ، وسارت بها بين البواخر الحربية منكسة أعلامها . ثم سار المشهد في شوارع لندن يتقدمه ولي العهد ادوارد السابع، وحفيدها وليم امبراطور جرمانيا . وأذنت المدافع والأجراس الناس بسير الجنازة .

كانت الملكة قد أنشأت في أرض فروجمور شبه متحف إلى

جانب قصر وندسور تذكاراً لزوجها ، ودفنت إلى جانبه وكتب على قبرها العبارة التالية :

« فيكتوريا – البرت

هنا أخيراً ارتاح إلى جانبك :

ومعك في المسيح سنقوم ثانية »

الامبراطورة أوجيني

"١٨٢٦ - ١٩٢٠"



لقد أصـــاب روشفوكول في قوله : « كل شيء ممكن في فرنسا » والحقيقة أنك لن تجد بلداً حدث فيه من المتناقضـــات كالذي حـدث في فرنسا : الملكية والامـبراطورية والجمهورية ، وهي تتخبط بين هوان مـذل أو ثورة داميـة ، سواء أكانت في حكم الفالوي أو البوربون أو بونابرت . من فرساي ولويس الرابـع عشر إلى ماليزون وكامبيني في الأمبراطورية الأولى والثانية ، الافكار ذاتها والآراء ذاتها والاخلاق هي هي تحت أردية مختلفة !

بلغت أسرة البوربون سنة ١٦٨٥ قمة مجدها . وكانت فرنسا تئن تحت نير الاستبداد. مائة وخمسون ألف سريّ ينعمون بثروة البلاد بين المرح واللهو ، وخمسة وعشرون مليوناً يكدون لاشباع جوعهم ، يطلب الشعب القوت فلا يجده ويجيبهم الاشراف : « كلوا عشباً » والملك يقول : « الدولة أنا » .

جاء ميرابو فقال : « ان المملكة على أسوأ حال ولا يصلحها سوى هزة عنيفة » ولكن الفرنسيين لا يقفون عند حد . جاءت الهزة العنيفة فأطاحت بالعرش وعملت المقصلة عملها الفظيـع في ساحة الكونكورد !

كانت الامبراطورية، وكان المجد مطمح أنظار الجميع: ريفولي، استولتز، وترلو. ثم جاءت الامبراطورية الاولى بمجدها وانتصاراتها وتاجها وصولجانها، ثم اختفت وكأنها حلم. عاد آل البوربون إلى منازلهم وهبت العاصفة فانكشفت عن الجمهورية في مجد جديد وانتصارات جديدة. ثم انقلبت الجمهورية إلى الامبراطورية ثانية، فاتجهت الانظار إلى مجد سلمي. تولاها نابوليون الثالث وعمل على افتتاح عصر جديد وبناء امبراطورية قوامها السلام.

رأى الباريسيون في ما ازدانت به شوارع مدينتهم من معالم الزينة ومظاهر السرور ما شرح صدورهم. رأوا امبراطورهم وإلى جانبه فتاة حسناء، فتساءل الناس من تكون هذه التي تجلس جلسة جلال، وتركب ركوب الفارس في غير خوف ولا وجل؟

تلك أوجيني دي مونتيو كونتة «تيبا». ولدت في إسبانيا سنة ١٨٢٦ في أقليم غرناطة. كان والدها من كبار أعيان إسبانيا ورثت عنه كرم المحتد ونبالة الطبع. هناك عرفها الكاتب الاميركي الشهير وشنطون ارفنج وكتب عنها الفصول الطوال منذ كانت فتاة إلى أن بهرت العالم بزخرفها وأبهتها حين أصبحت امبراطورة فرنسا.

تلقت أوجيني علومها في تولوز ثم في بريستول، وتخرجت تجيد الحديث بالاسبانية والانكليزية والفرنسية. بارعة الجمال، شديدة الذكاء، سريعة الخاطر. فلا غرابة أن أصبحت زهرة الربيع في لندن وباريس ومدريد.

تعرفت أوجيني إلى نابوليون لأول مرة في لندن إذ كان منفياً من فرنسا ولم يكن له من ميزة سوى أنه حاول القضاء على حكومة لويس فيليب فلم يفلح . تلاقيا ثانيـــة سنة ١٨٥١ وقد أصبح المنفي نابوليون الثالث ، وكانت هي في المقام الاول من مبدعات الازياء في باريس ، لفتت نظره وأخذ يصبو إليها إلى أن دعاها لمشاطرته العرش . وفي يوم ٢٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٣ أعلنت حفلة الزواج إلى مجلس الشيوخ رسمياً . وقال نابوليون في بلاغة ما يأتي :

« أيها السادة ، حيث أبلغكم اني آثرت امرأة أحبها وأحترمها على امرأة مجهولة قد يكون في اشتراكي معها الخير والشر متلازمين . ان التي آثرتها سليلة امارة . إنها فرنسية القلب والتربية ، فرنسية بما سفكه والدها من الدماء في خدمة الامبراطورية ، وفي كونها اسبانية من الخير أنه ليست لها أسرة في فرنسا يتعين عليّ رفعة شأن أفرادها وثراؤهم . انها على خلق كريم وخلال فاضلة وستكون زينة العرش . وهي كاثوليكية المذهب ستصلي معي لله من أجل سعادة فرنسا . وإني على أمل وطيد انها بفضلها وصلاحها ستعيد في مقامها الجديد فضائل الامبراطورة جوزفين » .

وفي يوم ٢٩ كانون الثاني (يناير) عقد زواج لويس نابوليون من الآنسة دي مونتيو مدنياً في قصر التويلري . وفي اليوم الثاني أقيمت الحفلة الدينية في كنيسة « نوتردام » التي لم تشهد حفلـــة كهذه في جلالها وفخامتها ، إذ جمعت النبلاء والاشراف والهيئات السياسية وجماعات الشعب وصفوف الجنود ورجال الفنون

والآداب ، كما جمعت كل مظاهر الجمـــال والروعة . وأخيراً تجاوبت أصوات الهتاف : « لتحي الامبراطورة » . ومن ثم عادت أوجيني وزوجها إلى قصر التويلري .

تزوج نابوليون الثالث كما تزوج نابوليون الاول عن حب لا عن مصلحة سياسية ، ووقع له في حق أوجيني ما وقع لنابوليون الاول من الاراجيف ، ما له ولهذه الفتاة العامية كان الاحرى به أن يتزوج من بنات الملوك من توطد عرشه . ولكن أوجيني كانت أملك لزمام زوجها من جوزفين لنابوليون الاول .

ولا بد هنا من الاشارة إلى أن نابوليون الثالث لم يكن من سلالة نابوليون الاول فهو ابن لويس نابوليون ابن أخ جوزفين وابنتها هورتنس من زوجها الاول « الفيكونت دي بوهرنيه » .

وهبت ثورة سنة ١٨٤٨ ، فرنسا تطلب ملكاً حاذقاً يحكمها في سلام . وقامت في سبيل ذلك بثلاث ثورات ضد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس فيليب وكان نصيبها الفشل .

أرادت العناية الالهية أن تضع تاج فرنسا على رأس نابوليون الثالث . والحقيقة أنه ما من شيء أفعل من النجاح . عندما كان نابوليون الثالث في قمة مجده مستوياً على عرشه ، كان الكتّاب يغالون في اطرائه ويذهبون في الثناء عليه كل مذهب . ولكنه يوم أزيل عن عرشه انطلقت في ذمه الالسنة والاقلام وانهال عليه الجميع تشنيعاً وتقريعاً بأقذع ألفاظ الهجاء .

على أن الحقيقة لا تضيع بين المغـــالاة والاغراق ، فإذا ما ذكرنا فشله سنة ١٨٧٠ علينا ألا ننسى له انتصاراته سنة ١٨٥٥ .

لم يحكم فرنسا بالانصاف أحد مثله ، ولم يعدل بها عن هرجها واضطرابها إلى السكينة والطمأنينة واحد غيره . لئن قيل عن اغسطس القيصر الروماني العظيم انه وجد روما من طوب «لبن» ، وتركها من « المرمر » ، فلا نجد من المبالغة ان نابوليون الثالث خليق بأن يقول ذلك عن باريس . فهو الذي خص باريس بعنايته وجملها بأحسن الآثار ، وهو الذي شاد القصور وأقام المعابد وجمل الشوارع ،وجددها تجديداً أخفى معالم باريس القديمة ،وأقام مكانها باريس الجديدة ، وهو الذي أتمّ بناء اللوفر ، وأعاد بناء التويلري ومد في شارع الريفولي .

ان من يعرف الشعب الفرنسي وما ركبت في صلبه من الاهواء المتناقضة يوقن انه لم يكن ليحسن ادارته سوى رجل مثل نابوليون الثالث . لا مرشد له سوى فطنته ولا سند له سوى متانة خلقه ، تولى حكمه في روية وحكمة ، وانتقل به إلى هذا المقام الذي جعل من الفرنسيين في نظر اوربا أرقى أمة ، فاض الخير من بين يديه وأذهب عنها أسباب الشقاء ، فخلق في مدى الاثنتين والعشرين سنة فترة حكمه ، مجداً لفرنسا وجعلها موضع اعجاب العالم .

انتهى التحالف بين فرنسا وانكلترا إلى ما فيه خير الامتين .

زار امبراطور فرنسا والامبراطورة سنة ١٨٥٥ الملكة فيكتوريا في قصرها، وكان ذلك أول ما سجل التاريخ عن امبراطور فرنسي يزور أرض ألد أعدائه . فنابوليون هذا الذي كان إلى عهد قريب يطوف شوارع لندن ، لا يلوي على شيء ولا يلتفت

اليه أحد ، أصبح موضع حفاوة الجميع ، يقابل أينما سار بالحفاوة والاكرام ، وتقام له ولزوجته الحفلات يتسابق اليها الاشراف وكبار رجال الدولة . وردت الملكة فيكتوريا وزوجها البرت الزيارة فانتقلت حفلات الافراح من لندن الى باريس .

بلغت سعادة نابوليون أوجها يوم ١٦ آذار (مارس) سنة ١٨٥٦ إذ رزق ابناً . وأبلغ الامبراطور هذا الخبر الى مجلس الشيوخ قائلا :

« لقد شاركني مجلس الشيوخ في سروري عندما علم ان الله وهبني ابناً . وقد حمد الله لميلاد « ابن فرنسا » واني لأذكر ذلك عن عمد . والحقيقة ان الامبراطور نابوليون الذي تخير بعد الثورة اعادة « كل ما هو حسن في النظام القديم » قد جدد هذا اللقب « أبناء فرنسا » . والسبب أيها السادة انه متى رزقت الامة وريثاً يديم عهد نظام قومي لا يكون ذلك الوريث ابن أسرته فقط بل هو ابن الامة كافة . وفي هذا اللقب ما يعلّمه واجباته » .

لم يكن الامبراطور وزوجته يهملان أمراً يسر الباريسيين ويوطد دعائم عرشهم ، ولكن حدث في أوائل كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٨ حين كان الامبراطور وزوجته ينتقلان في عربتهما الى الاوبرا الايطالية القيت في طريقهما ثلاث قنابل أريد بها اغتيال حياتهما ، فانفجرت تحت العجلات ، وذهبت بأرواح جماعة من حاشيته ولكن نابوليون وأوجيني لم يصابا بأذى .

كان زعماء العصابة من الايطاليين ، وقد لقي بعضهم جزاءه الحق .

وقد قال الامبراطور في هذا الحادث كلمة ألقاها في الجمعية التشريعية :

« أشكر الله لما منح الامبراطورة ومنحني من حمايته الظاهرة، واني لشديد الحزن لأن مؤامرة أريد بها اغتيال حياة واحدة أفضت الى الذهاب بأرواح الكثيرين . ان لنا في هذا عبرة ، وهي أن العوامل التي تدفع الى هذه الوسائل المرذولة تدل على ضعف مدبريها وحقارتهم .

« على انه ما من غيلة عادت على مدبريها بفائدة ما . لا من قتلوا قيصر ولا من ذبحوا هنري الرابع أفادوا شيئاً . قد يسمح الله بموت العادل ولكنه لا يسمح بانتصار الشرير . لذلك لا أرى في هذه الاعتداءات ما يزعج حاضري ولا مستقبلي . ان سلمتُ سلمتْ معي الامبراطورية . وان رميت قويت الامبراطورية بموتي . ان استياء الشعب والجيش يجعلها عضداً جديداً لعرش ابني . فلنواجه المستقبل بالثقة ولنوجه همنا لما فيه مصلحة وشرف وطننا . « وليحم الله فرنسا » !

على ان الذي يؤسف له ان نابوليون الذي عرفنا فيه سنة ١٨٥٨ الاتسام بالادارة الحكيمة والفكر الصائب والقدرة الكافية سنة ١٨٦٧ لم نر فيه سنة ١٨٧٠ سوى قائد لا رأي له ولا عزيمة .

كانت سنة ١٨٦٧ من سني الامبراطورية الثانية المعدودة إذ أقيم فيه،ذالك المعرض الدولي الفخم، الذي أشعر نابوليون وأوجيني معاني المجد الحقيقي .

ولقد امتازت أوجيني بأن أصبحت المصدر المبدع لكل ما يحدث في باريس من الازياء . اشتدت لهجة الناقدين على أوجيني لاسرافها في غير حساب . واتهمت بالرغبة في إعادة عهد الارستوقراطية ، على ان الطامة الكبرى هي ما اتهم به من مشورتها لزوجها في المسائل السياسية فهي التي حثته على حملة المكسيك ، وهي التي دفعته الى ايجاد ايطاليا وهي التي حببت اليه تحدي جرمانيا .

قدمت اليها يوم عيد لها جواهر فأوقفتها على بناء معهد تربي فيه بنات العمال ، وتصدقت على الفقراء بمبلغ عشرين ألف دولار من خمسين ألف أهداها إياها الامبراطور .

وكانت الامبراطورة ميالة الى السود من الخدم ، كان لها نوبي مات فاستعاضت عنه بحبشي، وما أكثر ما كانت تقيم من الحفلات والسهرات عند ما كان الامبراطور غائباً سنة ١٨٦٥ في الجزائر وسنة ١٨٧٠ في الحرب الفرنسية – البروسية ، كانت أوجيني هي القائمة مقامه ، وفي حفلة افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ركبت يختها النسر « *L'Aigle* » وتقدمت به الحفلة وسارت في طليعة الموكب البحري المؤلف من خمس وأربعين سفينة فاجتازت القناة الى البحر الاحمر. ثم عادت يوم ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر).

في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٧٠ أعلن نابوليون الحرب على بروسيا، وكان قد ضاق ذرعاً بما كان يتخذه بسمارك من الاساليب والحيل لاحراجه . كان جيش البروسيين على أتم استعداد، ولم يكن الجيش الفرنسي على شيء من ذلك. فقد كانت ثلاثة أسابيع فقط

كافية للقضاء على الامبراطورية الثانية وجيوشها، وسلم نابوليون في سيدان وسيق أسير حرب الى دولهلمسهوه . ثم دخل البروسيون فرنسا وتقدموا الى باريس ونام وليم ملك بروسيا في قصر الملك العظيم !

كانت أوجيني في الايام الاخيرة مقيمة في التويلري تعاني الشدة والاضطراب . توالت أنباء الانهزام وأعلن حصار باريس على ان الامبراطورة بقيت على شيء من الامل الموهوم . أرادت أن تركب جوادها وتسير في المدينة تعلن حل الجمعية التشريعية وتستحث الشعب، ولكن حين بحثت عن الثوب اللائق للركوب لم تجده . كان الخدم عندما اشتد الاضطراب قد اختلسوا ما استطاعوا من ثياب الامبراطورة ، ولعلهم أخذوا ثوب الركوب فيما أخذوا ، فاضطرت الامبراطورة للعدول عن عزمها خشية ان تظهر في ثوب غير لائق . وقد قال الوزير المؤرخ الشهير « تيرس عن ذلك فيما بعد :

« ان ضياع ثوب واحد أضاع الامبراطورية ، فلو ان الامبراطورة قامت بما اعتزمت لكان تاريخ تلك المواقع أقل خساسة مما دونه التاريخ » .

ثارت الجماهير يوم ٤ أيلول (سبتمبر) واجتمع حول التويلري خمسون ألفاً ينادون : لتسقط الامبراطورية ، ليسقط بونابرت ..

أسرع السنيور نيجرا سفير ايطاليا الى مسكن الامبراطورة وأبلغها : « ان قد حان وقت الهرب ، لا تضيعي الوقت ، لقد دخل الثائرون القصر من جهة الكاروزل » .

فارقت الامبراطورة شجاعتها ولكنها عادت فاستجمعت قواها ، ثم وضعت يدها في يد السفير وقالت : لنودع أصدقاءنا .

فتح باب غرفة الاستقبال وظهرت الامبراطورة في هيئة تجمع بين الجد والحزن محاولة الابتسام ، بينما كان المودعون منخرطين في البكاء . ولكن البرنس ريشار مترنيخ سفير النمسا دفع بها وأغلق الباب .

كان ميدان سان جرمان خالياً حيث العربة في الانتظار ، ونزلت اليها الامبراطورة مسدلة على وجهها النقاب . وقفت أوجيني أمام اللوفر ترسل النظر إلى تلك الأعمدة التي استندت اليها كاترين دي مديسي والملك ليلة سانت بارتلميو الشهيرة . أبصر بها صبي وكانت قد رفعت النقاب فصاح : « الامبراطورة . الامبراطورة » . وسمع الناس صوته فأسرعوا اليه .

ولكن المسيو فرديناند دي لسبس أسرع إلى الصبي وعرك أذنه وقال : « تصيح يحيا الامبراطور وقد أعلنت الجمهورية ؟ ستنال عقابك » ثم أطلق للعربة العنان فبلغت الشاطىء آمنة وأبحرت الامبراطورة على اليخت عزال (جازل) إلى انكلترا فأكرمت الملكة فيكتوريا مثواها ، وأنزلتها في قصر تشز لهرست حيث وافاها ابنها لويس نابوليون ، وقد عفا الدهر على أحلام أوجيني .

كان الناظر في قصر تشز لهرست سنة ١٨٧١ يرى سيداً في الثالثة والستين وسيدة وشاباً في الخامسة عشرة يعيشون فوق قطعة أرض انكليزية . وذلك السيد هو الذي كان بالأمس امبراطور

الفرنسيين وأعظم ملك في أوروبا . ولم يكن أحد ليدري هل كان يفكر في العودة إلى التويلري أو يؤثر المقام حيث هو .

وفي يوم ٩ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٣ توفي نابوليون يعزيه وجود زوجته إلى جانبه ، أما ابنه فكان غائباً . وتحولت جميع أماني الامبراطورة إلى ابنها ولكنه قتل في حرب ضد الزولولند سنة ١٨٧٩ ، وأحضرت جثته يوم ١٢ تموز (يوليو) إلى انكلترا ودفن إلى جانب والده .

بقيت الامبراطورة وحدها لا زوج لها ولا ولد ، لا يعرف أحد عنها شيئاً ، ميتة هي أم على قيد الحياة . لولا حادثة غريبة وقعت لها روتها الصحف على سبيل الفكاهة .

كان في حراسة قصر فرساي شاب رأى سيدة عجوزاً في رداء أسود تقطف زهرة ، فأسرع اليها وأوقفها في خشونة وجفاء ، فرفعت رأسها شامخة وحدقت فيه بصرها . واذا بعابر يصيح به : « هذه الامبراطورة أوجيني » فأدى الحارس التحية وأبقى لها زهرتها . وهكذا كادت امبراطورة الفرنسيين تقع تحت طائلة العقاب من أجل زهرة قطفتها .

وقضت أوجيني ما بقي من أيامها في عزلة ، وقد ودعت جميع ملاذ الحياة ، وافظت النفس الاخير يوم ١١ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ في مدريد ، بعد ان عاشت قرناً كاملاً ونشرت الصحف نعيها كأبسط الانباء ناسية تلك الامبراطورة الشهيرة التي كانت آخر أثر لفرنسا الامبراطورية .

تزوهيسي امبراطورة الصين

"١٨٣٥ - ١٩٠٨"



وصلت تزوهسي - أو يهونللة إلى مقـــام السيدة المطلقة في الصين بأمرين : الاول ما فطر عليه الصينيون من احترام الشيوخ. والثاني ما فطرت عليه هي من الدهاء والمكر السياسي .

لم تكن تزوهسي من أسرة ملكية بل كانت من أقدم قبيلة منشورية ، ولدت يوم ٣ تشرين أول (نوفمبر) سنة ١٨٣٥ وقيد اسمها في سجل الحكومة شأن جميع كبار الموظفين المنشوريين . ولا يعلم شيء عن أيام صباها الا كغيرها من الصينيات . وقد تربت بين جدران منزلها لا تبرحه أبداً . وبما انها من أرومة منشورية ، فقد كانت عرضة لأن يقع عليها اختيار الامبراطور فتكون احدى زوجاته الثانوية وقد أعدتها تربيتها لهذا المقام حتى الرابعة عشرة من عمرها .

كانت السيدة نيوهولو والدة يهونللة الارملة تسكن مع أبنائها في بكين، وكان منزلها كأكثر منازل المدينة ، قائماً في حديقة ليس له سوى طابق واحد يحيط به « فرندة » تصل بين جميع أقسامها لينتقل السكان من أحدها إلى الآخر دون الخروج من الباب ، كانت الحديقة كثيرة الغراس والزهور وفيها برك المياه

التي يسبح فيها السمك وعلى حافتها تقضي الفتاة أكثر أوقاتها .

وكان لوالدتها قريب يدعى موجانجا عني بتربية أولادها، وقد كانت يهونللة وافرة الذكاء ولم تضع وقتها سدى . حذقت فنون الادب والشعر وكان للتاريخ أعظم نصيب من عنايتها .

ولم يكن لها من الاصدقاء سوى ساكوتا ابنة موجانجا وشاب آخر من أقاربها يدعى جونج لو، يقال أنه كان خطيبها منذ الطفولة.

توفي الامبراطور تاوكوانج وحين تولى ابنه هسيان فنج عرش الامبراطورية أصدر مرسوماً بأن تحضر الى الحريم كل فتاة منشورية بلغت سن الانتخاب .

وقد بلغ عدد المتقدمات الى هذا الترشيح للزوجية ستين فتاة منهن يهونللة وساكوتا. فحصتهن السيدة الكبيرة والدة الامبراطور وحماة الزوجات واختارت منهن ثمان وعشرين، ولا رأي للامبراطور في ذلك ، وكان من بين المختارات ساكوتا ويهونللة .

لم يسمح ليهونللة بزيارة أهلها الا بعد خمس سنوات، وبعد ان وضعت ولي العهد . واجتمع الاهل والاقارب للاحتفاء بها ولما قدمت المائدة جلست الوالدة في مرتبة أوطأ من ابنتها اكراماً لوالدة ولي عهد الامبراطورية ، ولما انقضى النهار ودعت الجميع مقدمة لكل هدية ووعدت أمها أن سوف تحصل لها على إذن بزيارتها في القصر .

ولم تكن يهونللة لتبلغ هذا المقام لولا احتيالها في اكتساب رضى السيدة الكبيرة والدة الامبراطور ، وكان جمالها خير عون لها . توفيت تلك الحماة فرقيت يهونللة الى مقام المحظية الاولى ، ثم

مقام تزوهسي بعد ميلاد ولي العهد، ثم أطلق عليها لقب « بوذا العجوز » .

ثم قامت ثورة خطرة استولى الثوار فيها على نانكين، فأشارت فاني (يهونالة) أن يتولى تسنج كرو - فان قيادة جيوش الامبراطورية ، فأفلح وأخمد الثورة .

كان الامبراطور هسيان - فنج خاملاً كسولاً لا يعنى بالعلم ولا يفتح كتاباً، ولما بلغ الخامسة والعشرين ولم يرزق وريثاً ظنه الكتّاب بأنه آخر أسرته . ونشبت الثورة في جميع انحاء الامبراطورية. ولما رزق الوريث المنتظر، عاد الناس الى الطمأنينة اعتقاداً منهم ان الله عاد فابتسم للعرش واصحابه. وفي هذه الاثناء رقيت ساكوتا الى رتبة الزوجة الثانية وأطلق عليها لقب تزوآن . غير ان « تزوهسي » تمكنت بمهارتها من التدخل في شؤون الدولة وأصبحت مستشارة الامبراطور في جميع أمور حكومته .

أصيب الامبراطور هسيان فنج بفالج أقعده عن العمل، فاصبحت « تزوهسي» بصفتها والدة وريث العرش، ولما كانت عليه من متانة الخلق الحاكم الحقيقي صاحبة الامر والنهي ، وبعد ان كانت تتزلف وتتقرب، ارتفع شأنها ، وعلت كلمتها، وقسا طبعها واشتدت وطأتها . ورقيت الى مقام الحظية الامبراطورية «فاني» فمكنت يدها من كل شيء .

أغار الانكليز والفرنسيون سنة ١٨٦٠ على شمالي الصين، وأوقعت غارتهم الاضطراب بين الصينيين، حتى انهم لم يفكروا في

المقاومة . هرب الناس افواجاً من قصر المدينة الحرام (بكين) ، وهرب الامبراطور فيمن هرب، غير انه دعا هربه هذا رحلة الخريف . وأقام شقيقه الامير كونج حاكماً مطلقاً . وكانت تزوهسي قد نصحت الامبراطور بالمقام فلم يصغ اليها. وقد كتب أحد كتابهم يصف هذه الحادثة فيما يلي :

يظن بعض الامراء والوزراء ان المحظية يي (تزوهسي) أشارت على الامبراطور بالرحيل ، ولم يكن يشتهي غير ذلك . ولكنها عادت فأوحت الى اثنين من كتاب الدولة أن يسجلا عليه عمله هذا، وصدر منشور بانه لا يجوز للامبراطور بحال أن يغادر عاصمته . ثم أصدرت المحظية يي مرسوماً بمكافأة من يقتل البربر .

وفي اليوم التالي جاءت الانباء بحدوث معارك على أبواب شيي هوّي . وما ان بلغت هذه الانباء أسماع الامبراطور حتى أسرع بمحظياته يصحبه الامراء والوزراء والدوقات وجميع ضباط القصر الى الهرب في حالة خبل لا يمكن وصفها . كأن قبائل من البربر قد أحدقوا به من كل جانب.والحقيقة ان الاجانب كانوا لا يزالون بعيدين ولم يكن من سبب يحمل الامبراطور على مغادرة قصر الصيف. وبالرغم من الحاح المحظية يي عليه بالبقاء، لان في بقائه ما يضر باغراض الاجانب ، عدا ان فيه خير حمى المدينة والشعب قائلة :

« كيف يبقي الاجانب على المدينة متى علموا ان الامبراطور قد غادرها وترك عرشها خالياً ومعابدها خراباً » ؟

واستشهدت له بما أصاب أسرة شو إذ هرب ابن السماء من

العاصمة، وحثا التراب على رأسه، واضطر الى الالتجاء الى أمير من أمراء الاقطاعات . وقد رأى الشعب الصيني في هربه عاراً وهواناً وأنه ادعى للخزي والاحتقار .

قضى الامبراطور بعد هربه ليلة في معبد يبعد عن القصر ثمانية عشر ميلاً ، وهناك أبلغه الامير كونج بتقدم الاجانب ، فأجابه انه لا يستطيع إصدار أوامر وهو بعيد ، وانه يترك له تصريف الامور ، وما ان بلغ مدينة مي – يون هيان حتى أخذ منه العياء كل مأخذ ولم يقو على عقد جلسات. فأناب « تزوهسي » عنه في جميع حقوقه الرسمية ، فاصدرت المرسوم التالي :

« علمنا ان البربر يشددون على عاصمتنا، وقد طلب الينا الامراء والوزراء ان نطلب نجدات من الأقاليم . وأهم ما يجب في الحرب الحاضرة هو الأخذ على غرة والمباغتة المفاجئة في ترتيب حسن وتدبير حكيم. ان قوة الأعداء في أسلحتهم النارية، فاذا اجتذبناهم الى ملحمة يدوية بطل عمل مدفعيتهم وكان نصرنا مؤكداً . إن خيالة منغوليا ومنشوريا لا يغنون في هذه الحرب فتيلاً. أما رجال هوبي وسوشوان فهم أسرع من القردة وأصلح لمفاجأة الأعداء . ومتى أخذوهم على غرة كانت الهزيمة أمراً محتوماً . وليرسل الينا تسنغ كوفان نائب الملك في هولوانغ بثلاثة آلاف جندي لحماية بكين، وليأت الينا بمثلهم من سوشوان. لقد انهزمت جنود الأمير سانغ مراراً وأصبحت العاصمة في خطر. ان حرج الموقف لا يسمح بالتسويف . والأمل وطيد ان نجمع من الجنود ما ندرأ به هذه الغيمة السامة، ولكل عمل عظيم جزاء عظيم. .هذا مرسوم خطير

جداً .. »

أمرت « تزوهسي » الأمير كونغ ألا يبقي على أحد من أسرى البربر، ولكن الأمير رأى اخلاء سبيل جميع الأسرى، فاتهمت بريطانيا الصين بالخروج على قوانين الحرب بتعذيب رجالها حتى الموت وطالبتها بتعويض قدره خمسمائة ألف تايل، وقد دفع التعويض وأجيبت المطالب الأخرى بلا تعديل. وحين علمت « تزوهسي » بتسليم الامير حثت الامبراطور على متابعة القتال، ولكنه كان من الضعف بحيث لا يقوى على مغادرة « جهول » فوافق على معاهدة الصلح.

ان الذي أشار على الامبراطور بمخالفة رأي « تزوهسي » هو سوشون أحد مستشاريه، ولما أراد الامبراطور العودة إلى العاصمة وكانت العلة قد اشتدت عليه ولاح اقتراب أجله. لقد رأى هذا المستشار وشريكاه الأميران يي وتوان هوا أن يستخلصوا لأنفسهم الوصاية على الامبراطور القاصر، ولم يكن لهم لبلوغ هذه الغاية من مأخذ يتذرعون به لابعاد « تزوهسي » عن الامبراطور، وقد وجدوا في ذلك الشاب غونغ لو صديق المحظية الذي كان رفيق صباها موضعاً لاثارة الريب في نفس هسيان — فنغ، فادعوا على المحظية انها تقرب هذا الشاب اليها، وفي ذلك جرم يوجب السخط عليها ونفيها إلى « القصر البارد » حيث تعتقل المغضوب عليهن من محظيات الامبراطور. فأبى الامبراطور عليهم ذلك، وألحوا عليه بالنميمة، فلم يجب لهم طلباً، ولم يرَ من وجه لعقابها. غير انهم ما زالوا به حتى أمر أن يؤخذ منها ولي العهد ويعهد بتربيته

إلى زوجة الأمير يي .

أحست يهونللة وحاشيتها بسخط الامبراطور إذ أبى مقابلتهن . وازداد الرعب في المدينة إذ رأوا أن كل من غضب عليه سوشون كان نصيبه السجن ، يرميه بالتهمة حتى إذا افتدى نفسه بالمال أطلق سراحه ، وبذلك جمع ثروة طائلة .

أحس هؤلاء المتآمرون بما تضمر لهم « تزوهسي » من شر إذ بعثت تستعجل الأمير كونغ في أن يرسل اليها جيشاً يقيم في «جهول» فاجتمعوا حول المريض وأثروا عليه حتى أصدر مرسوماً بتعيين يي وتوان هوا وسوشون أوصياء على ابنه بعد موته ، وحرم على « تزوهسي » رقابة ابنها الذي كان في الخامسة من عمره .

توفي الامبراطور ونودي بابنه تونغ شيه امبراطوراً . وقرر المتآمرون تعيين ساكوتا وتزوهسي في مقام واحد يطلق عليهما معاً لقب الامبراطورة الكبيرة . وقد اضطروا الى ذلك لموالاة جيوش منشوريا للامبراطورة الكبيرة تزوهسي . ثم أصدروا قراراً رسمياً آخر بتعيين أنفسهم وصاة على الامبراطور القاصر أيضاً لا على المملكة وحدها .

لم يعمل هؤلاء المتآمرون للامبراطورة تزوهسي حسابا ، فأخذوا يصدرون المراسيم ، ولكن لا بد لصحة هذه المراسيم من ختم المملكة ، فأين هو ؟ لقد أخفته الامبراطورة ، ورأى الناس المراسيم بلا ختم فثاروا ضدها ، ولما كان سوشون بغيضاً في نظر الجميع فقد اشتد سخط الاهالي عليه ورموه بالعبث بشؤون الدولة

وفشت الضغينة ضدهم حتى بلغت بكين ، وهناك عقد الاعيان جلسة أقاموا فيها الامبراطورتين وصيتين على المملكة وولي العهد القاصر تعملان معاً مع اسدال الستار .

وكان هذا الستار حاجزاً أمام العرش تسدله الامبراطورة في الجلسات الرسمية فيحجبها عن أنظار الوزراء .

ثم أخذ في اعداد جنازة الامبراطور .

وعملاً بالمألوف من عاداتهم ، أحضر أولئك المغتصبون جثة الميت الى بكين وقدموا تقريرهم الى الامبراطور الصبي في جلسة رأستها الامبراطورة « تزوهسي » فقالت في هوادة :

« باسم شريكتي واسمي نشكر لكم الخدم التي أديتموها ونعلن إقالتكم ، لقد انتهت مهمتكم فانتهت وصايتكم » .

واحتج الامير يي بانه الوصي الشرعي ،وانه لا ينزل عن الوصاية حتى يبلغ الصبي رشده .

فأجابت الامبراطورة في هدوء : « لا شيء من هذا » .

ثم التفتت الى الحارس وقالت : « اقبضوا على هؤلاء الثلاثة » .

ثم أجرت الجنازة في احتفال وجلال تحرسها جنود جونج لو ، ولم يكن للمتآمرين مندوحة عن الخضوع . وكانت الامبراطورة الكبيرة حينذاك في السادسة والعشرين من عمرها ،وبقيت الى آخر أيامها الحاكمة المطلقة ، ولم تكن شريكتها سوى صورة وهمية .

ومن ثم أصدرت باسم ابنها مرسوماً جاء فيه : « أني أتهم أولئك الاوصياء المختلسين بالاعتداء على حقوقي ومحاولة خداعي لكنهم لن يخدعوا الامة ، وإذ كان مسلكهم هـذا جريمة ضد

الامبراطور الراحل وضد الشعب ، فعليه نأمر بحرمان تسه يوان (الامير يي) وسو شون وتوان هوا من مناصبهم » .

ثم صدر مرسوم آخر بمصادرة أملاك سو شون وكانت تقدر بالملايين لكثرة ما اختلس وارتشى ونهب .

ولما اتضح من تقرير الامير كونج واللجنة الامبراطورية اجرامهم واستحقاقهم الموت تعذيباً ،أظهرت الامبراطورة الكبيرة « تزوهسي » عطفها عليهم وسمحت لهم أن ينتحروا !

بلغت « تزوهسي » قمة مجدها ، ولكنها أخذاً بعبر التاريخ رأت ان حكومة المرأة لا ترضي الرجال ، فكانت تصدر المراسيم باسم ابنها ولا تظهر هي إلا في مقام عفو أو عطف ، وبذلك اكتسبت رضى الشعب الذي راح يدعوها بـ « الام العطوف » .
وكانت الامبراطورتان تعقدان كل يوم جلسة في القصر يحضرها الامير كونج بصفة مستشار ، إلا انه أخذ يثقل على « تزوهسي » فانتهزت فرصة تقصيره في أداء الخضوع لمقابلتها ، فأمرت الحرس بالقبض عليه مدعية انه يدبر خيانة. نفي كونج من القصر ، ولكنه أعيد اليه بأمرها عن خوف من غدره أو حاجة الى مشورته .

وما أن انقضت مدة الحداد وهي سبعة وعشرون شهراً ، حتى راجت بين الناس الاشاعات عما يحدث في القصر من ضروب المجون والخلاعة وتحكم الخصيان في شؤون الصبي ، وانصراف الامبراطورة الى اللهو وتمثيل الروايات . لهج الناس بذلك وقدمت الشكاوى والاعتراضات ، فاصدرت الامبراطورة بلاغاً تنفي فيه ما أشيع مؤكدة انها أحرص ما يكون على تربية ابنها تربية صالحة تسعد

بها الامبراطورية .

وحدث ان الامبراطورة « تزوهسي » بعثت بخصي يجمع الضرائب فأساء التصرف واكثر العسف ، حتى ضج الحكام ورفعوا الشكاوى ضده الى كونج ، الذي أقنع الامبراطورة الثانية تزو آن بأن تصدر موسوماً بقطع رأس آن ت - هي بلا محاكمة ، وقد خشيت الشريكة غضب زميلتها الا أنها أمضت الامر .

ولم يبلغ الخبر اسماع تزوهسي إلا بعد نفاذه ، فعينت مكان خصيها المحبوب خصياً آخر يدعي لي ليان - ينج ، فكان شراً من سلفه يتحكم في الجميع ويتصرف في أرواح الملايين من الناس .

بلغ تونج - شيه السابعة عشرة ، فأعلنت جلالتها بلوغ ابنها سن الرشد وصلاحه لتولي الحكم ، وتخير له الفلكيون يوماً موفقاً وهو يوم ٢٨ تشرين اول (نوفمبر) سنة ١٨٧٢ ، ونزلت له الوصيتان عن حقوقهما ونصحتا له باصلاح حكومته والبلوغ بها مبلغ الكمال .

نشأ الامبراطور الشاب خليعاً مفتوناً ، فلم يكن يعنى باحترام والدته ولا الاخذ برأيها ، بل كان يؤثر عليها تزو آن شريكتها !

اختارت له والدته زوجة آ - لو - ته . فكانت هذه أيضاً حرباً على حماتها تنصح لزوجها ألا يستشير والدته في مهام الدولة .

لم تدم مدة حكمه سوى ثلاث سنوات أصيب في آخرها بالجدري ، وهو في عرف الصينيين بركة ، إلا انه كان فيه القضاء على الامبراطور ، فرحل في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٥ رحلته الاخيرة . ولم ينجب مولود يخلف عرشه .

عقدت «تزوهسي» جلسة مستعجلة وبمساعدة امينها جونج لو وأنصاره عينت ابن الامير شون وريثاً للعرش ، وبذلك انتقمت لخصيها آن ت – هي من الامير كونج وحصرت ارث العرش في ابن أختها التي تزوجت من الامير شون . وسرعان ما استدعت ابن أختها والقوم يلحون عليها بالتمهل لاشتداد البرد في تلك الليلة، ولكنهم رأوا الوريث الجديد في القصر مع مربياته وخدمه . وعادت الامبراطورتان الى الوصاية ، وكان هذا انتصاراً عظيماً ثانياً لتزوهسي .

دعي عهد الامبراطور الجديد من قبيل التفاؤل العهد المجيد . غير ان الارملة التعسة آلو ته اشتد بها الحزن لموت زوجها ولأنها لم ترزق وريثاً فانتحرت . وتلا انتحارها انتحار آخر ، ذلك ان العالم وو كوتو انتحر احتجاجاً على جريمة اختيار ابن شون وريثاً للعرش . أساء هذا سمعة الامبراطورة « تزوهسي » وكان له أثر في عقلها .

استبد الغضب بالامبراطورة «تزوهسي» لعلمها ان الامبراطور الشاب كوانج هسو يؤثر عليها شريكتها تزو آن . إلا انها عرفت كيف تستميله اليها .. وحدث ان شكت اليها تزو آن فظاظة خصيها وما يدعيه لنفسه من الالقاب التي تكاد تكون ألقاب الامبراطور . وانقلبت هذه الشكاة الى شجار استفحل أمره . فلم تمض على ذلك أيام حتى مرضت تزو آن مرض الموت ، وقيل في ذلك ان الكعك المسكّر الذي بعثت به « تزوهسي » اليها كان مسموماً .

استمرت « تزوهسي » في الحكم وحدهـا ثماني سنوات حتى بلغ الامبراطور الجديـد العشرين من عمره ، فاختارت له ابنـة أخيها زوجة، ولكنه لم يمل اليها بل كان يؤثر البقاء بين أكبر المحظيات .

بلغت « تزوهسي » الخامسة والخمسين من عمرها فانسحبت إلى قصر الصيف تتفرغ للانس والانشراح وتنفق في غير حساب . ودام شأنها هـذا مدة عشر سنوات ، إلا أنهـا بقيت تسيء إلى الامبراطور الذي كان من المتعيّن عليه ان يستقبلها راكعاً عند عتبة الباب،فاذا ذهب إلى زيارتها بقي راكعاً أمام بابها حتى يؤذن له، وكان الخصي يتعمد الاساءة اليه باطالة مدة ركوعه . وقد تعتذر اليه أحياناً بانها في حديث مع خصيها ولا تستطيع استقباله فيبقى في انتظار نهاية ذلك الحديث !

وفي سنة ١٨٩٤ أخذت تعد مهرجاناً عظيماً في القصر لم يسبق له مثيل احتفاء بعيد ميلادها الستين . وفي هذه السنة وقعت حرب اليابان، وكانت خاتمتها إذلال الصين ، فرأت الامبراطورة أنه من اللياقة العدول عن هذا المهرجان، وان كان أمرها في ذلك يشف عن كدرها الشديد .

توجه اللوم في الحرب اليابانية إلى لي هونغ شانغ نائب الملك، ولكن الامبراطورة « تزوهسي » دافعت عنه وأوقعت اللوم كله على الامبراطور الذي أقدم على هذه الحرب بـلا استشارتها ولا موافقتها .

ومن سوء حظ الامبراطور انه سعى إلى مؤامرة يقبض فيها

على « تزوهسي » لتعتقل في جزيرة صغيرة بتهمة الاسراف في أموال الدولة، ولكن هذه المؤامرة انقلبت عليه، وألقي القبض على الامبراطور ذاته، وعادت « تزوهسي » إلى الحكم، ولكنه كان حكماً مزعزعاً .

في سنة ١٩٠٠ قامت في الصين تلك الثورة الرهيبة المعروفة بثورة « البوكسر » (الملاكمون) « وهي ترجمة عبارة صينية معناها قبضة النظام العادل » وترجع أسبابها إلى ما قبل وقوعها بسنوات عدة . فقد تعهدت الصين أن تدفع إلى اليابان غرامة فادحة عقدت لتسديدها عدة قروض في أوربا ، كانت تنزل الصين في كل منها عن ميناء خصب أو امتياز بمرفق مفيد . وضاق الصينيون ذرعاً بتدخل أولئك الروسيين والجرمانيين والفرنسيين والانكليز في شؤونهم وبلادهم، فهبوا يطردون من وطنهم أولئك الشياطين الأجانب .

هبت الثورة يعضدها الاشراف والامبراطورة ذاتها، ولكن كما هو المعروف في الثورات خرجت من أيدي قادتها إلى جماهير الشعب، فاضطرت الدول أن تبعث جيوشها لاخماد نار تلك المذبحة، فضربتها جيوش أوربا ضربة كادت تكون القاتلة. وفرضت عليها غرامة ثقيلة جداً ، ولما رأت الامبراطورة « تزوهسي » تقدم جيوش الاجانب، لاذت بالفرار وقضت ليالي في هربها من أسوأ ما يلقى المعوزون والبؤساء على انها كانت قد انتوت الانتحار ولكنها عادت فعدلت عنه .

عقد الصلح وعادت الامبراطورة إلى القصر ، وقد أحست

بحاجة البلاد إلى الاصلاح ، غير أن ذلك الاصلاح لم يكن في عرفها سوى إعادة بناء ما تخرب من معابد وقصور !

عاشت « تزوهسي » سليمة البنية لعنايتها الفائقة بصحتها، مع انها كانت مدمنة على تدخين الأفيون، إلا انها كانت تتناول منه باعتدال ولما أبان لها الأطباء أضراره أمرت بإبطال تجارته. كانت شديدة الاعجاب بالملكة فيكتوريا وترجو أن تعيش عمرها ، وقد رأت صورتها ولكنها لم تسمح ان يتجر بصورتها هي .

ولما عادت الى العاصمة اصلحت علاقتها بالامبراطور حتى انها كانت تستشيره فيما يعرض لها من الشؤون، وتطلعه على مراسيمها قبل صدورها . وإذ رأته مريضاً أعفته من التقاليد في السجود أمامها قائلة في لطف: « أوثر أن أراك معافى على أن أراك تضرب الأرض بجنبك » .

وفي سنة ١٩٠٣ أقيم الاحتفال الثالث والسبعون لذكرى ميلادها، وكان الامبراطور من الضعف بحيث لم يستطع المقام في الحفلة زارها الداله لاما مهنئاً، وقد ساءه عدم وجود الامبراطور، غير أن العجوز (تزوهسي) كانت تعرف سوء حاله . فاستمرت الحفلة في هرجها وقد ظهرت فيه بمظهر آلهة الرحمة !

كانت حين يشتد البرد تأخذها الرعشة وتمرض وتلزم الفراش، وقد اشتد المرض على الامبراطور، أما هي فكانت ارادتها أقوى من مرضها ، لذلك والت النظر في شؤون الدولة .

وفي يوم ١٤ تشرين الاول « نوفمبر » توفي الامبراطور فأصدرت مرسوماً بتعيين الامير شون قائم مقام . وعينت ابنة

أختها أرملة الامبراطور، امبراطورة كبيرة محتفظة لنفسها بلقب الامبراطورة الكبرى .

أحست تلك الليلة بتزايد ضعفها ورأت أن أجلها يدنو. فعقدت مجلساً للحال . وفيما كان المجلس يتداول النظر في الشؤون العامة ، تنبهت وتناولت المرسوم وكتبت عليه بيدها : « لقد صار من واجبي الذي لا مناص منه أن أتولى الوصاية » !

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم لفظت النفس الاخير . تلك المرأة التي حكمت بلادها نصف قرن تقريباً . وبموتها وموت ابن أختها، انتهت الاسرة المنشورية وافتتحت الصين عهد الجمهورية .

فهرس

هذا الكتاب

إذا كانت المرأة قد عاشت في أغلب الظروف قانعة بعرش الزوجية وملكوت الأمومة ، فقد عرفت الأيام نساء كن الشهب الوضاءة في تاريخ بلادهن ، وقفن على قمم العظمة ، وتربعن على عروش الممالك والامبراطوريات ، وتحكمن بمقدرات البلاد والعباد .

وفي هذا الكتاب عرض وافٍ لحياة طائفة من أشهر ملكات التاريخ في العالم ، من مصر القديمة الى أرض بابل ، ومن البطاح الروسية إلى ربوع انكلترا ، وما قامت به هذه الملكات من أعمال رفعتهن إلى ذرى المجد والسؤدد أو انحدرت بهن إلى مهاوي الدمار والفساد .

وسير الملكات أغنى السير بصراع العواطف ، وأحفلها بالغرائب والدسائس ، وألصقها بأسرار التاريخ والمراحل الغامضة فيه ، ومن ثم جاء هذا الكتاب على قلة صفحاته معرضاً للأخلاق ، ومتحفاً للطبائع ، تستجلي فيه من وراء صور الأفراد سمات الجماعات والشعوب .

دار الكاتب العربي